الفصل الأول

جامعة الزهد الأولى

وأهم روادها

obeikandl.com

obeikandl.com

إمام جامعة الزهد الأولى محمد ﷺ

لا أحد يستطيع أن يقدم بين يدى رسول الله ﷺ بهذه المنزلة على مر التاريخ ؛ لأنه ﷺ هو الذى رسم على صحاف التاريخ كيفية الزهد ، وهو حقًا كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم] .

فقانون الزهد الذى قرره رسول الله ﷺ هو من تشريع الله، تشريع إلهى لا يعدله تشريع، ولا يضاهيه قانون، لذلك يعد مقياسًا يُقاس عليه سلوكنا وتقوَّم به أعمالنا .

إنه رسم للتاريخ خطًا إذا تجاوزه أظلم وحلك وانتهت قصته، وراحت مدته، فهو إمام جامعة الأخلاق الخالدة، وسيد الزهاد وأى سيادة !! إنها سيادة فى كل حين من الدهر، وتهيمن على كل عصر أو زمان .

وكما قال الإمام ابن القيم ـ عن ريادة رسول الله ﷺ فى كل شىء : ومما ينبغى أن يُعلم : أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ فى أعلاها، وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجَّت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تعرف تلك الخصال وتقاسمها على فضلها عن غيرها، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضًا .

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف ، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك .

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون

فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره .

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ، احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين ، والغلظة عليهم ، والبطش بهم، وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخلق الحسن ، والمزاج المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب .

وإذا احتج به المتورعون عن الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئًا لغد ،احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة، والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفكر، فكان يصوم حتى يقال : لا يُفطر، ويُفطر حتى يُقال : لا يصوم .

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن و ..... إلخ [١].

حقًّا إنه جامعة متكاملة تتراجع عنها سوابق الهمم ،ويقصر عن إدراكها أهل السبق .

وإذا نظرنا بعين التقصى عن الزهد فى صاحب الجوامع ، وجدناه فى رتبة لا تسامى، وفى الوقت نفسه يسود ملوك الأرض فى الغنى، ويؤم معالى الخلق، ومعارج الشرف فى العالمين، ولكن مع ملكه زهد فيما ملك، ونزعت همته إلى أسمى مراتب الجوع والجهاد .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك : ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز بُر حتى مضى لسبيله[٢] أى : حتى قبض ﷺ .

فالعبرة فى ذلك أن جوع الأبدان هو بعينه شبع الأرواح، فإذا تخمت الأبدان وتثاقل الشحم وغاب العظم فى اللحم جاعت الأرواح، وتلك مخالفة فى عرف المقربين .

فالنبى ﷺ عمل على إطعام روحه ، ولم يركن إلى الجسد إلا قليلًا، وهذه حبيبته السيدة عائشة تحكى لابن أختها عروة بن الزبير[٣]عن حال رسول الله

(١) الإمام ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص ٢٢٨ باختصار شديد.
(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب : الزهد، ج ١٨ ص ١٠٦، طبعة محمود توفيق، بدون تاريخ.
(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام، أمه السيدة أسماء بنت أبى بكر " رضى الله عنهما " . انظر : صفة الصفوة، للإمام أبى الفرج بن الجوزى، ج ١ ص ٢٩٤، بتحقيق : أ . طارق محمد عبد المنعم، طبعة دار ابن خلدون، بدون تاريخ.

قائلة : « والله يا بن أُختي ، إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أُوقِدَ فى أبيات رسول الله ﷺ نار، قال : يا خالة ، فما كان يُعيشكم ؟! قالت :الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ،فكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها فسقيناه [١]. وكان النبى ﷺ يقبل تلك المنائح ليس طمعًا فيها، ولا حاجة إليها، لا .... إنه يقبلها لحيائه من ردها على صاحبها ،وجبرًا لخواطر أهلها .

كما زهد ﷺ عن الترف فى اللباس والنعال والقُمُص، إنه تقمص بالزهد لباس العز، فالترفع عن مطالب الدنيا عز، ومع تملك النبى لأسباب الغنى، أبى أن يجعل للغنى يدًا عليه، فساد الغنى بالغنى عن الغنى، حتى خشعت أمامه العيون الناظرة إليه، وعنت الجباه إذا اتجهت إليه .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء، ولا عشاء لغذاء، ولا اتخذ من شىء زوجين، ولا قميصين، ولا ردائين، ولا إزارين، ولا رئى فارغًا، إما يخصف نعلًا لرجل مسكين، أو يخيط ثوبًا لأرملة»[٢].

إنه زهد وترفع فوق كل شهوة، وبَعُد عن تعكير النفس بغبار الدنيا الثائر، ليزيل أركان الصفاء الروحى الذى به كيان الوجود الإنسانى .

وقد يتسلل الفكر عن حدود العقل، أو ينفك العقل من عقاله ويشرد من وراء ذلك إلى القول بدلالة ما سبق على فقر رسول الله ﷺ، ولكن نقول للعقل : لا، إن النبى ﷺ يدفع ذلك عن نفسه، فقد كان ﷺ زاهدًا ولم يكن

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب : الزهد ، ج ١٨ ص ١٠٦.
(٢)المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فقيرًا، إنه كان يملك من المال ما يكفيه قبل البعثة وبعدها ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى] أى : وجده ذا عيلة وفقر فأغناه بالمال .

قال الإمام الفخر الرازى فى هذا المعنى : إن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب، ولما اختلت أحوال أبى طالب أغناه الله بمال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه الله بمال أبى بكر، ولما اختل ذلك أمره الله بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أغناه بالغنائم، فكان يأخذ منها ما حدده الله له، ولم يكن بالشىء الهين، ولا بالقليل، قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، وكان ما يأتيه يمكنه أن يعيش به عيشة طيبة ، ولا يبيت يومًا طاويًا.

والذى ينظر إلى عطاء رسول الله ﷺ يدرك مدى الغنى الذى ملأ عليه الدنيا، فاستفرغه فى العطاء للسائلين والفقراء والمساكين.

وفى ذلك يقول سيدنا أنس بن مالك ﷺ : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع ـ الرجل ـ إلى قومه فقال: يا قوم ، أسلموا، فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة [1].

ورجل يعطى هذا العطاء لا يمكن أن يكون فقيرًا؛ إذ كيف يكون فقيرًا وقد تكثَّر الطعام بين يديه حتى إنه أطعم جيشًا بأكمله من حفنة تمر ، وذلك يوم الخندق، فكيف لرجل أعطاه الله هذه المعجزة أن يكون فقيرًا [2]؟!

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب : الفضائل، باب : ما سئل رسول الله شيئًا قط فقال : لا وكثرة عطائه، ج ٥ ص ٦٨.

(٢) د . محمود أبو الفتوح السيد، المدارس الزهدية فى صدر الإسلام، نشأتها وأهم روادها، ص ٣٠ وما بعدها بتصرف واختصار، طبعة سنة ١٤١٨هـ ـ سنة ١٩٩٨م، بدون مطبعة.

وكيف لهذا النبىّ الذى فتحت له أبواب السماء لتستقبل دعاءه لترد إليه بالاستجابة لا غيرها أن يكون فقيرًا ؟! فلو تمنى على الله ملك الأرض لاستجاب الله له .

إن الأمر أرقى من ملك الدنيا والانشغال بها ، فذلك رزق زائل، إنه أمرٌ قرره الله على رسوله بقوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه].

وقرره أيضًا بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ لِلْمُؤْمِنِينَ جَنَاحَكَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[الحجر] .

إذن القضية أرقى من حاجيات الدنيا، فهى شىء لا يذكر فى مهمة صاحب الرسالة ﷺ، لذلك وقف ﷺ منها موقفًا حاسمًا ، لشدة فهمه لحقيقتها التى أثبتها بقوله : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر »[1].

والمعنى: أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى من النعيم المقيم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل له فى الدنيا من تكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم والشقاء الأبدى [2].

(٢،١)صحيح الإمام مسلم بشرح النووى، كتاب : الزهد ، ج ١٨ ص ٩٣، مرجع سابق.

المهم أن النبى ﷺ علمه ربه أن الدنيا سجن ضيق والآخرة سعة وتحرر، فزهد عن السجن ليجد الحرية الباقية ، وعلم ذلك أصحابه .

وفى القول النبوى انتباهة بالغة، ودرس موَجَّه إلى القلوب، فإذا تحولت قبلة القلب من سجن الدنيا اتصلت النفس بالله تعالى، واستماتت فى سبيل أداء حقوقه، حَتى يَفنى صاحبها عن الفناء ويبقى مع الله، فإذا تكلم فبالله، وإذا سمع فمن الله، وإذا تحرك فلله، وإذا سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فكأنه حينئذ فى الجنة، فلا يشعر إذا انصرف عائد إلى الدنيا إلا وكأنه عائد إلى سجن بعد سعة، فيؤثر السعة على الضيق ، ويبقى زاهدًا عن الدنيا لئلا يُحرم لذة الحياة مع الله تعالى.

وتلك أسمى ثمار الحديث الشريف؛ لذا أوصى النبى ﷺ أصحابه فى مدرسة الزهد بالغربة عن الدنيا، وكأنه يأمرهم بخلع أقدامهم عن وطن الأجساد، ومن ذلك ما نصح به سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما بعد أن أخذ بمنكبيه وقال : «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[1].

وفى قول النبى ﷺ إشارة إلى إيثار الزهد فى الدنيا، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن فى الدنيا إلى أكثر مما يُبلغه المحل[2].

وعلى هذا القياس انطلق الدرس النبوى فى جامعة الزهد الأولى لبحث العالمين على عدم الركون لمتع الدنيا ،وخلع صفاتها عن القلب .

---

(١)رواه الإمام البخارى فى صحيحه، انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، كتاب : الرقاق ، باب :« كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، ج ١١ ص ٢٨٠،طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ١٤١٠هـ ـ سنة ١٩٨٩م.

(٢)المرجع السابق، ص ٢٨١.

وفى التعليق على هذا الدرس النبوى يقول شيخ الحكماء الإمام العز بن عبد السلام :

تأملت حقيقة هذا الحديث ، فرأيت أن الأرواح خلقت قبل الأجساد، ثم أُفيضت من عالمها الروحانى النورانى، فأودعت ظلمة هذا الجسد الترابى الطبيعى الجثمانى، والجسد مخلوق من التراب، والتراب كائن قبل كون الآدمى، فهما جُلبا غريبين غُربا عن وطنهما، وأُبعدا عن أصليتهما ، فاجتمعا اجتماع غربة، كل واحد منهما يشير إلى وطنه، ويطير إلى سكنه،فالجسد أخلد إلى الأرض، والروح بدون السمو لم يرض[1] .

والنبى ﷺ أدرك تلك الحقيقة، فأراد أن يسمو بطلابه عن الإخلاد إلى الجسد الترابى، فأنصتوا إليه فحجبوا أنفسهم عن الدنيا، فحجبوا أنفسهم عن النار، وعاشوا مجاهدين فكشفت لهم الجنة .

إنهم أدركوا معنى قول سيد الزهاد ﷺ فيما رواه أبو هريرة عنه: « **ليس الغِنَى عن كثرة العَرَضَ ولكن الغنى غنى النفس** »[2]. والعرض : هو متاع الدنيا[3].

وقال ﷺ معلمًا أبا ذر معنى الزهد الحقيقى : « **يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هو الغنى ؟** ».

فقال : أبو ذر : نعم.

قال : « **وترى قلة المال هو الفقر ؟** » .

---

(١) الإمام العز بن عبد السلام، زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز، بتحقيق : د . حسن جبر سقير، ص ٦١، طبعة دار الحسين الإسلامية.

(٢) رواه الإمام البخارى فى صحيحه. انظر : فتح البارى، ج ١١، كتاب : الرقاق، باب : الغنى غنى النفس، ص ٣٢٧.

(٣) الإمام ابن حجر العسقلانى، المرجع السابق، الصفحة نفسها .

فقال أبو ذر: نعم . يا رسول الله.

قال :«إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب »[١].

والمعنى ـ كما قال العلامة الفقيه أبو الحسن بن بطال : ليس حقيقة الغنى كثرة المال؛ لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه فى المال لا يقنع بما أوتى ، فهو يجتهد فى الازدياد ولا يبالى من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو مَن استغنى بما أوتى ، وقنع به ورضى ، ولم يحرص على الازدياد ، ولا ألح فى الطلب، فكأنه غنى[٢].

إنها مدرسة رسول الله ﷺ فيها تلقى الصحابة أصول الزهد ، وصارت تعاليمها فى الكون تملأ قلوب المؤمنين .

إنه رسول الله ، رئيس جامعة الزهد الأولى، الذى عاش فى موقع السيادة، وجَلس على عرش الدنيا وأنكر على نفسه ما فيها.

إنه رسول الله ﷺ الذى ملك مفاتح خزائن الدنيا، ومع هذا الملك لم يأكل ﷺ على خِوان أبدًا، فقد رُوى عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : لم يأكل النبى ﷺ على خِوان[٣] حتى مات، وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات[٤].

أى جمال هذا ؟ وأى زهد ذاك ؟

إنه زهد مَن علمه ربه حقيقة الدنيا، إنه أنصت لربه ووعى قوله : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل :٩٦]، فأغمض عينيه عن الفانى، فما

(٢،١)سبق تخريجهما.

(٣)الخوان : هو ما يؤكل عليه كالمائدة وغيرها من سائر السُفر . انظر : المعجم الوجيز، ص ٢١٥، طبعة خاصة بالتربية والتعليم.

(٤)رواه الإمام البخارى فى صحيحه، كتاب : الرقاق، باب : فضل الفقر، ج ١١ ص ٣٢٩.

فتحهما إلا على الباقى.

وعلى هذا قامت الحقيقة الساطعة على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها؛ لتعبِّر عن تلك العظمة التى تجلت وارتقت على دنو الدنيا ، وترفعت عن فتاتها، تقول السيدة عائشة : لقد توفى رسول الله ﷺ وما فى رفِّى من شىء يأكله ذو كبد، إلا شطرُ شعير فى رف لى، فأكلت منه حتى طال علىَّ، فكِلتُهُ ففنى.

والرف يشبه الطاق فى الحائط، وقيل : هو خشب يرتفع عن الأرض فى البيت يوضع فيها ما يراد حفظه.

والمعنى : أن النبى ﷺ توفى على حالة من الزهد، فلم يكن على الرف فى بيته شىء من حيوان، بل ما عليه إلا بعض من الشعير، فأكلت منه السيدة عائشة حتى فرغ [١]، هذا هو زهد المعلم الأعظم ﷺ .

ولا زلنا نسأل أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ: وماذا بعدُ يا أماه عن طعام رسول الله ؟

تقول السيدة عائشة ـ وكأنى بها تجيب وهى حبيبة رسول الله وصاحبته كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارًا إنما هو التمر والماء، إلا أن نؤتى باللحيم [٢].

ثم نسأل أمنا عائشة عن فراش رسول الله ﷺ، وكأنى بها تجيب على مسمع من العالمين قائلة : كان فراش رسول الله ﷺ أدَم وحشوه ليف [٣].

إنها كلمات فى حكاية عائشة تستدعى المدامع، وتوقد مجامر القلب، وتأخذ

(١) الإمام ابن حجر العسقلانى، فتح البارى شرح صحيح البخارى، ج ١١ ص ٣٣٨.
(٢ ،٣) رواه الإمام البخارى فى صحيحه، كتاب : الرقاق، باب : كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه، انظر : فتح البارى، ج ١١ ص ٣٤٠.

بالمواجد والمشاعر إلى عالم التجريد عن التلبس بصفات الدنيا، إنها دعوة إلى خلع لباس الدنيا وإلقائه بعيدًا بعيدًا، فيا لها من دنيا صغيرة، رسول الله ينام على فرش حشوه الليف الخشن!

وفى رواية أخرى من حديث ابن مسعود : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر فى جنبه، فقيل له : ألا نأتيك بشىء يقيك منه ؟ فقال :« **مالى وللدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها** »[1].

فى هذا الجو عاش سيد الزهاد وإمام جامعة الزهد، وهذا هو وصف حاله فى بيته وفى طعامه ولباسه وفراشه وعفافه ، وترفعه عن متع الدنيا معه ومدى استعباده لها ، ليستعملها أداة لإطعام فقير أو لكسوة عارٍ أو لنصرة مظلوم، وقد أنتج هذا الحال الذى عاشه رسول الله ﷺ رجالًا زهادًا ساروا على درب معلمهم ﷺ ، فملكوا الدنيا وعمروها، وترفعوا عنها وهى بين أيديهم .

وفيما يلى نرد مواردهم لنتعلم من مؤانستهم ما تزكو به نفوسنا، وتنْقى به قلوبنا، فتسلك جوارحنا دروب الطهر فى غير دنس، وطرق الترقى فى غير تدنى، فنرتفع باقتدائنا بأحوال هؤلاء الأنقياء إلى أعلى مقام .

۞ ۞ ۞

(١)رواه الإمام أحمد وأبو داود فى سننه ، انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، ج ١١ ص ٣٥٣ بالشرح.

زهّاد فى مَعِيّة الرسول ﷺ

إن دراسة حياة هؤلاء الزهاد الذين تربوا فى جامعة رسول الله ﷺ إنما تمثل ضرورة ملحة ، حينما تكون حياتهم الزهدية سانحة لتدارك كثير من المعانى البناءة، لا سيما فى هذا العصر الذى هوى فى بحر المادية المطلقة التى زجت بالإنسان فى عمق سحيق، بل أصبحت تكبله بما شاءت من قيود وحدود، وتشده إلى الأرض ليخلد إليها، فيتعامل مع كل شىء يتصل بروحه بنظرة ضيقه، وعقلية متحجرة، وروح ممسوخة وقاسية، حتى أصبح لتلك المادية الرافضة للمعانى الروحية حراسًا يسهرون لها الليالى ، ويوقدون الشموع ليرعوا أفكارها، فواجه هؤلاء الزهد بكل الأساليب الملتوية والممارسات الخاطئة، والمواقف المذبذبة المشينة فى كثير من الأحيان .

ومن هنا، فإنا لن نسمح لدراستنا لحياة هؤلاء الزهاد أن تتخذ إلا طابع الاستفادة من التجربة الفاضلة، لتسمو بها أرواحنا، وتكون لنا ربيعًا نتخير من أزهاره، ونجنى من ثماره، ونلتذ بأفانين تغريد أطياره، ونكون نحن لها التجسيد الحى الذى يستوعبها ويمثلها .

وما أشد تلك الومضة المبهرة من شمس حقيقة الزهد ﷺ، والمشرقة على ساحات قلوب من حوله فدخلوا فى معيته، وصنعت منهم أقمارًا تطوف حول شمس تملأ الدنيا نورًا ، يكشف عن حقيقتها المتوارية فى ظلامها .

وأصبح هؤلاء الزهاد روَّادًا فى ميدان الزهد، فمثلهم وهم فى معية رسول

الله ﷺ كمثل شجرة طيبة أصلها رسول الله، هو ثابت، وفروعها هؤلاء الرواد الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضات الله تعالى، فبلغوا عنان السماء ، وعلموا الدنيا كيف تزهد عن نفسها. وكشفوا لها عن حقيقتها الواهية حتى حكمت على نفسها بنفسها .

ومن نجوم الهداية الزاهرة التى استنارت من منبع النور النبوى :

obeikandl.com

أولاً : سيدنا أبو بكر الصديق

إنه الصديق ، أول الطلاب فى مدرسة رسول الله ﷺ ، تبع النبى ﷺ حتى تغذت روحه من روافد علمه، واكتسى قلبه بحلل الآخرة بعد أن خلع عن نفسه خرقة الدنيا البالية، فأشرق من حاله وفعاله بشائر النصر على الهوى، وعبرت كلماته عما يجيش فى صدره من إعراض عن متع الدنيا، حتى ذاع فى عالم الزهد صيته وملأ الدنيا، وقبل أن تأخذنا جذبة الوجد فى وصفه دون انفلات عنها، لابد من تقديم موجز لتلك الشخصية جمة الفوائد، عذبة المورد، حسنة المنحى :

مولده ونشأته ﷺ :

ولد الصديق عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى التيمى [١] المكنى بأبى بكر سنة ٥٧٢م بعد عام الفيل بثلاث سنوات تقريبًا[٢]،وقيل : بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وقيل : بسنتين وأشهر دون تحديد لعدد الشهور [٣].

يجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ فى مرة بن كعب بن لؤى. وكانت أمه تدعى بأم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة[٤].

---

(١)الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٨، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٥هـ ـ سنة ١٩٩٥م.

(٢) أ . محمد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، ص ٩، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٤٠٣هـ ـ سنة ١٩٨٣م.

(٣) أ . مجدى فتحى السيد، سيرة وحياة الصديق، ص ٢٩، طبعة دار الصحابة للتراث، طبعة أولى، سنة ١٤١٧هـ ـ سنة ١٩٩٦م.

(٤) أ . عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٣٤ بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية.

وقد نشأ سيدنا أبو بكر نشأة كريمة طيبة فى حضن أبوين لهما الكرامة والعز فى قومهما، ما جعل أبا بكر ينشأ كريم النفس، عزيز المكانة فى قومه[١].

ألقابــه ﷺ :

لقب سيدنا أبو بكر بألقاب عديدة، ولكل لقب علة صدر عنها، ترفع من شأنه ﷺ ، وتدعونا إلى التحلى بحليته والمجاهدة فى الاتسام بسماته، ومن هذه الألقاب :

١ ـ **الصِّدِّيق** : وقد انبثق هذا اللقب مِنْ فِي رسول الله ﷺ بعد أن أثبته سيدنا أبو بكر بالفعل، فهو الذى صدقه عندما كذبه جحافل الكفر وزعماء القهر، وهو الذى لازمه عندما تخلى عنه الناس، ومن مواضع إطلاق هذا اللقب من رسول الله ﷺ لما صعد النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان جبل أحد فرجف بهم فقال: « **اثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصدِّيق وشهيدان** »[٢] وهذا تأصيل لهذا اللقب .

٢ ـ **العتيق** : لقب أطلقه النبى ﷺ على أبى بكر يحمل معنى العتق من النار والنجاة من عذابها، فقد قال ﷺ « **أنت عتيق الله من النار** » [٣]،وفى رواية أخرى قال له : « **أبْشِر ، فأنت عتيق الله من النار** »[٤].

---

(١)د . يسرى محمد هانئ ، تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص ٣٠، طبعة معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، طبعة أولى، سنة ١٤١٨هـ

(٢)رواه الإمام البخارى فى صحيحه، كتاب : فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب : فضل أبى بكر، ج ٥ ص ١١.

(٣)رواه ابن حبان، انظر : الشيخ علاء الدين على بن بلبان الفارسى، الإحسان فى صحيح ابن حبان، وهو صحيح الإسناد، ج ١٥ ص ٢٨٠، طبعة دار الرسالة، بيروت، طبعة أولى، سنة ١٤١٥هـ ـ سنة ١٩٩١م.

(٤)رواه الترمذى، انظر : الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، تحفة الأحوذى بشرح الترمذى، حديث رقم ٣٦٧٩، دار الاتحاد العربى، طبعة ثانية، سنة ١٣٨٥هـ ـ سنة ١٩٦٥م.

٣ ـ **الأوَّاه** : لكثرة تـأوه أبـى بكـر وبكائـه مـن خـشية الله، واعتـصار قلبـه بمدامع الخوف والوجل، ومحاسبة النفس ودوام المراقبة، ورقـة قلبـه وشـفافية ضميره، لقب أبو بكر بالأواه، قال الإمام إبراهيم النخعـى عـن هـذا اللقـب : «كان أبو بكر يسمى بالأواه لرأفته ورحمته »[١] .

هذه أشهر الألقاب التى حملتها تلك الشخصية الفذة، وقـد لقـب الـصديق بألقاب غيرها تدل على ما تحمله تلك الشخصية مـن عظـيم الوفـاء والقـرب، والنقاء والحب .

ومن هذه الألقاب : الصاحب ؛ لصحبته رسول الله ﷺ فى الهجرة، بل وعلى طول حياته، وفى هذه الصحبة قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبه :٤٠] فالمراد بالصاحب فى الآية هو : سيدنا أبو بكر بلا منازع[٢].

كما لقب ﷺ بالأتقى ؛ لرقة قلبه فى تعامله مع موقف المعذبين مـن المـؤمنين بأيدى الكافرين، فلما رأى أبو بكر ذلك أعتقهم من مالـه الخـاص واشـتراهم، فلقبه الله تعالى بهذا اللقب فى قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل] .

بيئتـه التى نشـأ فيهـا :

وكانت الجاهلية سـمة مجتمعـه الـذى عـاش فيـه، وقـد تنزهـت شخـصية الصديق عن ترهات تلك الجاهلية، فمع أن الجزيـرة العربيـة كانـت غارقـة فى

(١)الإمام المحدث ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٨.
(٢)الإمام ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٧، طبعة دار صادر، بيروت.

الظلمات، ومع ما ران عليها من عقم روحى ، إلا أن الصديق تجرد عن ثياب الجاهلية ، فنشأ طاهرًا إلى أن تطهر الطهارة الكبرى بإسلامه .

إنه نظر إلى القبائل من حوله فرآها تتعبد لآلهة نحتت من حجارة ، أو حفرت من خشب ، أو صنعت من نحاس، آلهة متعددة، وحرية جنسية مدمرة، وانحرافات أخلاقية لا ضابط لها، ومجتمع بأكمله ضاعت فيه معالم الكرامة بعد أن غابت فيه ملامحها فى ظل الفساد الذى يملأ جنباتها، مجتمع بأكمله يندفع إلى الهاوية دون ماض مشرق يلح على المصلحين أن يعملوا على بعثه، مجتمع بأكمله تجرد عن أية آمال تثير حماس الراغبين فى تأليف القلوب المتنافرة لتحقيقها، مجتمع بأكمله تزجه الجاهلية فى الحريات المدمرة، والشهوات البهيمية المفسدة، وفوضى المعتقدات المتعددة .

نعم ، هذه هى ملامح بيئة الصديق، مجتمع جاهلى يحجبه الظلام الدامس عن رؤية الحق من غير هاد، ولكن مع هذا الظلام اتسمت شخصية (الصديق) بالعزلة عن ذلك كله ، فكان من صفاته :

١ ـ الوجاهة والشرف :

فمع ما اتصف به المجتمع الجاهلى من همجية، حيث كان أهله شدادًا غلاظ الأكباد، إلا أن الصديق لم ينضم إلى تلك الهمجية ،ولكنه انسلخ عنها، وانضم إلى وجهاء القوم وأشرافهم ورؤوسهم، فقد تميز فى المجتمع الجاهلى عشرة رهط فى عشرة بطون بنزاهة العيش، وهم الذين ينتهى إليهم الشرف قبل ظهور الإسلام.

فالعباس بن عبد المطلب ،من بنى هاشم، كان يسقى الحجيج فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام .

وأبو سفيان بن حرب ، من بنى أمية ، كان عنده العقاب (راية قريش)، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه.

والحارث بن عامر من بنى نوفل، كانت إليه الرفادة، وهى ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع السبيل.

وعثمان بن طلحة بن زمعة بن الأسود، من بنى أسد، كانت إليه المشورة، فلا يُجمع على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق ولاَّهم عليه، وإلا تخير وكانوا له أعوانا.

وأبو بكر الصديق من بنى تيم، كان إليه الأشناق وهى الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئًا فسأل فيه قريشًا صدقوه، وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

وخالد بن الوليد ، من بنى مخزوم، كانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب.

وعمر بن الخطاب ، من بنى عدى، كانت إليه السفارة فى الجاهلية.

وصفوان بن أمية ، من بنى جمح، كانت إليه الأزلام .

والحارث بن قيس من ، بنى سهم، كانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم [1].

هكذا كان أبو بكر فى مجتمع الجاهلية باذخ الشرف، عالى الذروة، له جاه صاعد ، وشرف باسق .

---

(١) أ . رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، ج ١ ص ١٢، طبعة دار الرائد العربى، بيروت، لبنان، طبعة سادسة، سنة ١٤٠٣هـ ـ سنة ١٩٨٣م.

٢ ـ لم يذق طعم الخمر فى الجاهليـة :

فقد تصاعدت نفس أبى بكر عن شهوة المزاج، وطهرت قريحته منذ الجاهلية، فلم يذق للخمر طعمًا، فكان عَزُوف النفس عنها، إنه حرمها على نفسه، تقول السيدة عائشة عن ذلك : حرم أبو بكر الخمر على نفسه، فلم يشربها فى جاهلية ولا فى إسلام [١].

إنه كان من أعف الناس فى الجاهلية، وقد سئل عن حاله مع الخمر فى الجاهلية، فأجاب فى طهر ونزاهة قائلًا : أعوذ بالله، فقيل : ولم ؟ قال : كنت أصون عرضى، وأحفظ مروءتى، ومن شرب الخمر ضيع عرضه ومروءته [٢].

إن الإسلام قد انطبع فى قلب أبى بكر، حتى إذا دعاه النبى ﷺ إليه صدَّق عن يقين .

٣ ـ ما سجد جَبينُه لغير الله تعالى :

تزهد الصديق عن السجود لصنم أو وثن فى الجاهلية فى وقت رانت فيه على قلوب أهله صفة الجهل والخرافة، وخبثت فيها الاستنارة الدينية فتعصبوا لآلهتهم ، وما كانوا يعبدون، سواء كانت تباع فى الأسواق، أو تصنعها الأيدى فى البيوت، ومع تزاحم الآلهة ترفع الصديق عن هذه الدنية فلم يسجد لآلهة آبائه، وقد حكى ذلك عن نفسه، فبينما يتحلق الصحابة الأقمار حول شمسهم ومصدر نورهم ﷺ إذا بالصدِّيق يقول:

ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه أصنام، فقال لى أبى : هذه آلهتك الشمُّ العوالى، وتركنى وانصرف، فدنوت من صنم وقلت ـ سائلًا إياه : إنى جائع فأطعمنى، فلم يجبنى، فقلت : إنى عار فاكسنى، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة ، فخر لوجهه [٣] .

---

(١) أ . مجدى فتحى، سيرة وحياة الصديق، ص ٣٤، طبعة دار الصحابة.

(٢) الإمام جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، بتحقيق : أ . إبراهيم صالح، ص ٤٨، ٤٩ بتصرف، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ١٤١٧ هـ ـ سنة ١٩٩٧م.

(٣)الشيخ محمود المصرى، أصحاب الرسول، ج ١ ص ٥٨ بتصرف، طبعة مكتبة أبى حذيفة السلفى، طبعة أولى، سنة ١٤٢٠ هـ ـ سنة ١٩٩٩م .

وكأن قلب الصديق الحى القوى فياض بالنور قبل الدم، يوزع الفراسة والنور على عروق الجسم وشرايينه، والعقل وموازينه، حتى أدرك خرافة الوثنية قبل أن يُسلم، فترك دعوة للعقول لتعى وتدرس دون سوق الدواب وترديد الببغاوات، فيتعلم الجاهل ، ويتحمس الخامد، ويعود الضال، إن أبا بكر لم يقتنع بالسجود لهذه الأحجار ، فلم يسجد إلا لله رب العالمين .

٤ ـ وقرت محبته فى القلوب، وغشيت جلالته المشاعر :

فقد قرّ الصديق فى قلوب الناس، وامتلأت صدورهم من دفقات هيبته، وغشى المشاعر جلال مودته، وكما جاء فى سيرة ابن هشام من قول الإمام ابن إسحاق:

إن القوم كانوا يحبونه، ويألفونه، ويعترفون له بالفضل العظيم، والخلق الكريم، وكانوا يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته[١].

٥ ـ فاق الأكفاء فى معرفة أخبار العرب وأنسابهم :

إنه أربى على الأكفاء فى معرفة الأصول والجذور ونهايات البطون والشعوب، يقول الإمام ابن حجر : كان ـ أبو بكر ـ أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما فيها من خير وشر[٢].

ومع معرفته بالأنساب شريفها وغير الشريف منها، لم يعب الأنساب ـ قط ـ ولم يذكر المثالب بخلاف غيره[٣] فلم يهجُ أحد فى نسبه أبدًا، وإن دل ذلك فإنما يدل على حسن تصرفه، ورفعة منطقه .

تلك أبرز صفات الصديق فى مجتمع الظلام، قبل أن يشرق فجر الإسلام،

---

(١)الإمام ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ ص ٣٧١، دار إحياء التراث، طبعة ثانية، سنة ١٤١٧هـ ـ سنة ١٩٩٧م.

(٢)الإمام ابن حجر، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٦.

(٣)ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج ٢ ص ١٨٣، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، طبعة ثالثة، سنة ١٤٠٧هـ ـ سنة ١٩٨٧م.

وكأن نور الله كان يغشاه، وفيض الحكمة والرفعة والزهد يملأ عليه طريق الحياة .

رأس ماله وغناه :

كان الصديق من رؤوس القوم فى الغنى والكسب، وتنقل بين الأقطار والأمصار، ومسح البلاد بتجاراته، فدخل بصرى من أرض الشام، وارتحل بين البلدان،وبلغ رأس ماله أربعين ألف، وكان ينفق من ماله بسخاء[١]،فتميز فى مجتمعه عن الأقران، وترفع عن الأشباه فأصبح منقطع النظير، وما هذا السخاء إلا تعبير عن أن زهده مستقر فى قلبه، ولم يزاحمه حب الدنيا منذ الجاهلية .

إسلامه ﷺ :

كان إيمان الصديق وإسلامه بعد بحث طويل يتعقب خطا الفطرة إلى أن وجد طلبته وأسلم ، وقد أجمع الصحابة على أن الصديق أول من أسلم، وقال ابن عباس وحسان بن ثابت وأسماء بنت أبى بكر وإبراهيم النخعى :

أول من أسلم أبو بكر[٢]، وليس ذلك فقط ،بل هو أول من صلى على حد قول سيدنا عبد الله بن عباس[٣]، ولما أسلم آزر النبى فى نصر دين الله تعالى بنفسه وماله [٤]، وقد أنشد سيدنا حسان فى ذلك مادحًا :

إذا ذكرت شجوًا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

(١) أ . محمد رضا ، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، ص ٩، وأ . على الطنطاوى، أبو بكر الصديق، ص ٦٦، طبعة دار المنارة بالسعودية، طبعة ثالثة، سنة ١٤٠٦ هـ سنة ١٩٨٦م.

(٢،٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٢، طبعة دار ابن خلدون، بدون تاريخ.

(٤) أ . محمد رضا، أبو بكر الصديق، ص ٩.

خـير البريـة أتقاهـا وأعـدلها إلا النبـى وأوفاهـا بـما حمـلا
الثانى التـالى المحمـود مـشهده وأول الناس حقًا صدق الرسلا [1]

الصدِّيق فى رواق الزاهديـن :

تجاوبـت المحافـل بـصدى ذكـر زهـد أبـى بكـر، وجـاب بريـد ذكـره الآفاق،ودوَّى موقفه من الدنيا فى أركان رواق الزاهدين،حتى عُرِف بالأسماع قبل الأبصار، وأومأت إليه الأصابع، وامتدت نحوه العنـاق، وكـأن تـصرفاته الزاهدة ،ومدامعه المتدفقة ، قد كشفت سر زهده الذى زهد عن كشفه .

زهـد حتى المـوت :

ما إن استشعر الصديق إشراق نور الإسلام فى قلبه، إلا وتنكـشف الحجـب عن عين ذاته، وتتلألأ فى فـؤاده حقيقـة الـدنيا بـشهواتها ورئاسـتها وأموالهـا، فيعزف ـ عنها فأصبح الزهد عن الدنيا أكبر همه ومبلـغ علمـه، وهـو ـ بطبعـه وقبل إسلامه ـ كثرت تساؤلاته عن الدنيا بينه وبين عقله، إلى أن جاء الإسـلام وأجاب عن هـذه التـساؤلات ، فأمـسك بـالعزوف عنهـا، والانـصراف عـن مطالبها، وبدأت قصة الزهد الحقيقية تتربى فى نفسية الصديق كما يربـى أحـدنا فُلُوَّه.

ونستطيع أن نتدرج مـع الـصديق فى حكايتـه مـع الزهـد الحقيقـى فى هـذه النقاط :

١ ـ إسـلام وزهـد :

ذاق الصديق لذة الأنس بالله تعالى، وهبت عليه نـسائم الألطـاف، فلمعـت فى قلبه سعادة غامرة وكأنها البرق الخاطف، سعادة راحت تمحو عن نفسه آثـار

(١)الإمام أبو الفرج بن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٢، وديوان حسان بن ثابت، تحقيق : أ . وليد عرفات، ج ١ ص ١٧.

الدنيا وصفاتها المذمومة ، وتقطع كل العلائق المتصلة بالجاهلية.

وعرف أبو بكر جوهر الحقيقة، ولمس بيديه حقيقة الدنيا، ووضع قدميه على الصراط المستقيم، فنقل سير حياته من حب المال ورفاهية الجاهلية إلى الزهد عن هذه الرفاهية، والزهد عن المال وتسخيره فى خدمة الإسلام، وذلك قمة الزهد، فإسلام أبى بكر نفسه زهد.

فهذا أبو بكر الذى كان يُعد من وجهاء القوم وأصحاب الرأى ، يقوم فى الناس خطيبًا، ورسول الله جالس ، والدعوة فى مهدها الأول، وفى سريتها، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون عليه وعلى المسلمين، فضربوه فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا ، ودنا منه الفاسق عتبه بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم فأجلت المشركين عن أبى بكر ﷺ ،وحملوه فى ثوب حتى أدخلوه داره، ولا يشكون فى موته [1].

وفى تلك الحادثة شاهد على زهد الصديق عن مكانته التى كان فيها فى الجاهلية، وطمعه فى رضوان الله ورسوله مهما كلف الأمر .

٢ ـ الصديق الزاهد لا يأبه بالمال لتحرير الرقيق :

راح سادة قريش من المشركين يعذِّبون الرقيق الذين أسلموا، حتى كاد الرعب أن يقضى على النفوس من شدة هول العذاب، وإذا بخفقات قلب

(١)أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٠، طبعة دار الريان، طبعة أولى، سنة ١٤٠٨هـ ـ سنة ١٩٨٨م.

الصديق تشتد، حتى أصبح لا يأبه بمال فى سبيل تحرير هؤلاء الرقيق، وما إن همَّ الصديق على ذلك إلا ويروح الفزع الذى ران على الوجوه وتسكن الأوصال المرتجفة.

وكان منهم سيدنا بلال ﷺ، فقد تعرض لعذاب عظيم، ولم يكن لبلال ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، فراح سيده أمية بن خلف ليهدده تارة ويغريه أطوارًا، فما وجد عند بلال غير العزيمة، وعدم الاستعداد للعودة إلى الوراء، إلى الكفر والجاهلية والضلال، فحنق عليه أمية وقرر أن يعذبه عذابًا شديدًا، فأخرجه إلى شمس الظهيرة فى الصحراء ، بعد أن منع عنه الطعام والشراب يومًا وليلة، ثم ألقاه على ظهره فوق الرمال المحرقة الملتهبة، ثم أمر غلمانه فحملوا صخرة عظيمة وضعوها فوق صدره وهو مقيد اليدين، وبلال صابر يقول : أحد أحد[1]، فقصد الصديق إلى أمية ، فاشتراه بسبع أوقٍ أو أربعين أوقية ذهبًا [2].

إنه عين الزهد عن المال الذى لا يمثل شيئًا فى تصور أبى بكر ، وليس بلال فقط، لا ...

إنه اشترى عامر بن فهيرة شهيد بئر معونة، وأم عميس ، وزنيرة التى ذهب بصرها عندما اشتراها وأعتقها، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت : كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان فرد الله

(١)أ . محمود على بغدادى، عتيق العتقاء الإمام أبو بكر الصديق، ص ٣٩ بتصرف، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، طبعة أولى، سنة ١٤١٤ هـ سنة ١٩٩٤م.

(٢)الغضبان، التربية القيادية، ج ١ ص ١٤٠، دار الوفاء، طبعة أولى، سنة ١٤١٨ هـ سنة ١٩٩٨م.

بصرها [١]، وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار [٢]، ومر الصديق بجارية بنى مؤمل ـ حى من بنى عدى بن كعب ـ وكانت مسلمة أيضًا، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو ـ يومئذ مشركًا ـ يضربها، فابتاعها الصديق وأعتقها [٣].

إنه الزهد قد تربع فى أعماق نفس الصديق، وقر فى سويداء قلبه ، واستولى عليه بالكلية .

٣ ـ زهد بلا حدود :

فى غزوة تبوك تجلى زهد أبى بكر على رؤوس الأشهاد، فما إن تزاحمت سيوف المشركين وخرجت من غمدها، واستلت سهام الكفر من جعبها، وراحت نار العداوة تأكل صدور العدو ، ويستشعر لها لسعًا أليمًا، إلا ويهتف النبى لأصحابه بإعداد العدة والعتاد ، وتجهيز الجيش ، فعداد المشركين كبير، فجاد كل صحابى بما يسمح به حاله، فهذا عمر يتصدق بنصف ماله ، وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وأترك الرواية لسيدنا عمر، ولتنصت لقوله المواجد، يقول سيدنا عمر :

أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عنده، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ : «**ما أبقيت لأهلك ؟** »قلت : أبقيت لهم مثله، قال : وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ : «**ما أبقيت لأهلك ؟** » ،قال : **أبقيت لهم الله ورسوله**، قلت : **لا أسابقك إلى شىء أبدًا** [٤].

(١ -٣) السيرة النبوية، لابن هشام، ج ١ ص ٣٩٣ باختصار .

(٤)سنن أبى داود، بتحقيق وتعليق : عزت الدعاس، كتاب : الزكاة،ج ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٣، رقم ١٦٧٨، سنة ١٣٩١هـ سوريا، والحديث حسنه الإمام الألبانى.

فرغم المنافسة العمرية للصديق ، ورغم تعمُّدها، كان السبق لأبى بكر. إن المال لم يجد سبيلًا لقلب أبى بكر وهذا عين الزهد .

٤ ـ خلافة وزهد :

ما إن افتقد النسيم أنفاس الحبيب ﷺ بموته، إلا وماج فى المجتمع شىء من الانفلات، فركب المؤمنين يحتاج إلى قائد، فهمَّ القوم إلى مبايعة الصديق، فتوجس الصديق خيفة من الدنيا الزاحفة إليه كلما فرَّ منها وأبى ذلك وزهد عنه.

وقد ظهر زهده ﷺ متجليًا فى خطبته التى قارع بها عنان السماء،وملك بها أعنة القلوب وانساقت الأفئدة إليها، إنه خطب قائلًا والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله ﷻ فى سر وعلانية، ولكنى أشفقت من الفتنة، وما لى فى الإمارة من راحة، ولكنى قلدت أمرًا عظيما ما لى به من طاقه ولا يد إلا بتقوية الله ﷻ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى [1] .

إن الصديق ظل يستوحش الدنيا وزهرتها حتى أصبح مضربًا للمثل على مر التاريخ، ولا يزال يعترى الصديق شعور دقيق بالرغبة عن الدنيا لا فيها، فها هو يقول عند توليه الخلافة فى ذوق رفيع وحس مرهف يعبر عن الزهد فى أسمى معانيه :

أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا

(١)انظر : البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٢٣ / ٣٢١، ورواه الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى الحاكم : فى المستدرك على الصحيحين، ج ٣ ص ٦٦، وقال عنه : حديث حسن ووافقه الإمام الذهبى، طبعة دار الكتب العلمية، طبعة أولى، سنة ١٤١١هـ ـ سنة ١٩٩٠م.

خَٰشِعِينَ ﴿﴾ [الأنبياء] اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه على أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى ... إلخ »[1].

لقد كشف الصديق بزهده ـ مع ملكه الشامخ وهو رئيس دولة المسلمين حينها ـ عن بالغ إخلاصه ونفاسة معدنه،وصدق إيمانه، إنه زهد فى كل شىء .

زهد فى الطعام والملبس :

حقًا إذا سلك الصديق فجًا سلكت الدنيا فجًا غيره، فها هى شهوات النفس تتوارى بل تغيب عن قلب أبى بكر، قال زيد بن أرقم :

كنا مع أبى بكر ﷺ فاستسقى، فأتى بماء وعسل ، فلما وضعه على يده بكى وانتحب ، حتى ظننا أن به شيئًا ولا نسأله عن شىء، فلما فرغ قلنا : يا خليفة رسول الله ﷺ ، ما حملك على هذا البكاء ؟

قال : بينما أنا مع رسول الله ﷺ ، إذ رأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولا أرى شيئًا، فقلت : يا رسول الله ، ما الذى أراك تدفع ولا أرى شيئًا ؟ قال : «الدنيا تطوَّلت لى ، فقلت :إليك عَنِّى، فقالت : أما إنك لست بمدركى »، قال أبو بكر : فشقَّ علىَّ وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ ولحقتنى الدنيا[2].

إن الصديق بتلك القولة ليأخذ بالألباب نحو اقتدائه برسول الله ﷺ وتعلقه به، ولم لا ... وهو الذى آمن به وصدقه ، فسار يمشى أمامه ومعه وخلفه ليدفع عنه ، ويوقظه إذا نام، إنها مصاحبة تامة صنعت من الصديق رائدًا فى عالم الزهاد.

---

(١)الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨١.

(٢)رواه ابن حبان، وقال : رجاله ثقات إلا عبد الواحد بن زيد الزاهد . انظر : الترغيب والترهيب، للمنذرى، ج ٥ ص ١٦٨ ، وحياة الصحابة، الإمام محمد بن يوسف الكاندهلوى، ج ٢ ص ٤٣٦، طبعة دار الريان، طبعة أولى، سنة ١٤٠٦هـ ـ سنة ١٩٨٧ م.

وعن رافع بن أبى رافع الطائى، قال : رافقت أبا بكر فى غزوة ذات السلاسل وعليه كساء له فدكى، يخله عليه إذا ركب، ونلبسه أنا وهو إذا نزلنا[١].

إن الصديق لم يتخذ زينة الملوك ولا لباسهم وحللهم، فقد ارتوى من شرب النبى ﷺ حتى استوى عوده، وألقى بمسامعه وفتح قلبه له حتى بسط الزهد على قلبه ببساطه وتربع على عرشه ، فخرج من الدنيا عن ثوبين لم يمتلك غيرهما وهو رئيس دولته.

روى الإمام أحمد ـ فى مسنده ـ أن الصديق قال عند احتضاره : انظروا ثوبىّ هذين فاغسلوهما ،ثم كفنونى فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت [٢].

وكأنه رضى أن يكفن فى القديم الذى استهلكته الأيام ولم يرض لأحد من رعيته أن يلبس سوى الجديد .

زهد الخليفة وحياة الملوك :

إن الرفاهية الحقيقية فى حياة الزهاد لا تعنى البزخ والشراء والصولجان، لا ... إنها تنطلق من معنى الزهد، والصديق ترفه فى الدنيا بالزهد عنها وبملكيته لها دون أن تملكه، إنه عبَّر عن ذلك بما أبدته بصيرته مما تكنه من كنوز زاخرة فجرت فى منطقه من سبائك الذهب ما يعبر عن رجاحة عقله، ونقاء قلبه الممتلئ بأنوار اليقين .

روى الإمام أحمد فى الزهد عن عروة ﷺ: أن أبا بكر لما استُخلف ألقى كل

(١)رواه الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، كتاب : الزهد، فى زهد أبى بكر، ص ١١٢، مكتبة الإيمان.
(٢)المرجع السابق ، ص ١١٣.

درهم له ودينار فى بيت مال المسلمين، وقال : كنت أتجِر فيه (أى : المال) وألتمس به، فلما وُليتَهم (أى : المسلمين) شغلونى عن التجارة والطلب [١].

إن خليفة المسلمين وضع فى بيت المال كل ماله ولم يترك شيئًا، وخرج يغدو إلى السوق ليتجر بأثواب وضعها على رقبته، فلقيه عُمر وأبو عبيدة فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق، قالا : تصنع ماذا وقد وُليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قالا له : انطلق حتى نفرض لك شيئًا، فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة وماكسوه فى الرأس والبطن [٢].

أى : لم يعطوه من الرأس والبطن.

هذا هو حال الخليفة الزاهد فى مملكة الحكم ، إن الإمرة لم تزعزع فيه نظرته للدنيا لحظة واحدة، بل كان يزداد على مر الأيام زهدًا عنها، وتألقا بدونها .

إن وفدًا من زعماء العرب وملوك اليمن قدم على الصديق ، وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والحبرة، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة، ذهبوا مذهبه، ونزعوا ما كان عليهم [٣].

إنه كان يحذرهم فى خطبه من الميل إلى الدنيا والأخذ بأسباب الرفاهية، وينصحهم ألا يتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج فينعموا ،وتعتاد أجسامهم على كل ما هو لين، وتؤدى بهم إلى رخاوة الأجساد وصراوتها،

(١) الإمام محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٣٧.
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها، والإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٩.
(٣) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٩٢ . انظر : د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، دراسة فى الحياة الروحية الخالصة فى القرون الأولى، ص ٣١، طبعة دار الدعوة.

فيتألموا من الاضطجاع على الصوف [١].

إن الصديق قد أطلق بدروسه للملوك عنان أرواحهم لتسبق نزواتهم فاتجهت رغباتهم إلى غايات أخروية، وسيطرت على ملكهم نزعة إيمانهم، ذاقوا بها شراب حقيقة الملك .

ولا يزال رائد الزهد يعلم الملوك كيفية العيش مع الصولجان، إنه راح يحلب لجوارى الحى أغنامهن بعزيمة صادقة، وهو من هو ؟ إنه فى موقع سيادة العرب وقيادة الجيوش التى ذهبت لتقلع من الأرض الجبروت الفارسى، والعظمة الرومانية، دون أن يمنعه ذلك من حلب أغنام الحى.

فتلك جارية من الحى تنظر إلى الصديق بعد البيعة بالخلافة وتقول : الآن لا يحلب لنا منائح (أغنام) دارنا، فسمعها الصديق، فقال : لعمرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن [٢].

إنه زهد عن موقع الخلافة وإن جلس على عرشها، فكم بكى وصاح فى وجه الدنيا، وأمر الناس بالنياح فى دار الفناء رجاء السعادة فى دار البقاء، فهو القائل : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا[٣].

صراخ ونحيب، وسهر ووجل، وقلق من المصير وصياح فى النفس كالنذير، نعم ... كل ذلك من الخليفة الزاهد، إنه تمنى أن لم يكن فى تلك الدنيا،

(١)الإمام الطبرى، تاريخ الطبرى، طبعة الحسينية، ج ٣ ص ٥٣، والمرجع السابق، ص ٣١.
(٢)ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٨٦، وله شواهد، فإسناده حسن لغيره.
(٣)الإمام أحمد، كتاب : الزهد، زهد أبى بكر، ص ١٠٨.

فقال : وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن[١]، وقال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد[٢]، وقال ـ والنحيب يملؤه : وددت أنى خضرة يأكلنى الدواب[٣].

إنها كلمات ضجت بها الدنيا وجنحت إلى السلم، فلم ترغب فى الصديق وقد رغب عنها بكل ما وسعه، يقول أبو سفيان عن الخليفة الزاهد : إن الدنيا لم ترد أبا بكر ولم يردها وأرادت ابن الخطاب ولم يُردها[٤].

إنه ﷺ زاهد مطلق لا يحب إلا الله ، ولا يريد إلا وجهه، ترك حظ نفسه، وزالت عنه كل رغبة فى جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطان، ولم تبق لديه إلا رغبة واحدة : أن يَلقى حِبَّه فى الآخرة وهو عنه راض، فشمر فى سبيل ذلك قاطعًا علائقه بالماديات فى سبيل غاية روحية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء، ونبذ الشهوة ، فاختار جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها، فصار يرى بنور الله، ويفكر بهدى الله الذى بات يحسه فى عين ذاته، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يُلقى عن عاتقه أثقال الشهوة، لينال رضا الله ورسوله ، فيخرج من الدنيا لا يملك إلا الرضا .

الصديق يلقى ربه زاهدًا[٥]:

عاش الصديق حياته زاهدًا، حتى فتح الله عين يقظته، وأشهده خفايا سريرته، وأدرك أن حقيقة وجوده فى تلك الروح اللطيفة الصافية المودعة فى

(١ - ٣) الإمام أحمد، كتاب : الزهد، زهد أبى بكر، ص ١٠٨ .
(٤) رواه الإمام أحمد فى كتاب : الزهد، ص ١١٣.
(٥) د . محمود أبو الفتوح السيد، أوائل الزهاد، ص ٤٧، دار الشرق للطباعة.

هذا الجسم أو القالب الكثيف ، فعلم أن الروحية هى الحق، وأن مادية جسده الفانى هى الباطل فعمل للحق وقذف به فى وجه الباطل فأدحضه، وها هو ذا قد حان وقت الرحيل، وقد سجى الصديق على فراش المرض الأخير، وندع المجال لأمنا عائشة لتحكى لنا ما كان من زهد الصديق عند لقاء ربه، تقول السيدة عائشة :

أول ما بدئ مرض أبى بكر أنه اغتسل،وكان يومًا باردًا ، فَحُم خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى الصلاة،وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه[١]. ولما اشتد به المرض قيل له : ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : قد رآنى، فقال : إنى فعال لما أريد[٢].

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال أبو بكر : انظروا ماذا زاد فى مالى منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة بعدى، فنظرنا فإذا عبد نوبى كان يحمل صبيانه،وإذا ناضح [٣] كان يسقى بستانًا له، فبعثنا بهما إلى عمر،فبكى وقال : رحمة الله على أبى بكر لقد أتعب من بعده تعبًا شديدًا [٤].

ولازالت العبرات تحكيها لنا السيدة أم المؤمنين عائشة عن زهد أبيها عند لقاء ربه، قالت :

قال أبو بكر : أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا،

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨١.

(٢) د . محمد صامل السلمى، ترتيب وتهذيب البداية والنهاية ، خلافة أبى بكر الصديق، دار الوطن، الرياض، طبعة أولى، سنة ١٤١٨ هـ ـ سنة ١٩٩٧ م.

(٣) الناضح : هو البعير الذى يستقى عليه.

(٤) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٢.

ولكنا قد أكلنا من جريش [١] طعامهم فى بطوننا، ولبسنا خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر، وابرئى منهن، ففعلت.

فلما جاء الرسول إلى عمر بكى ، حتى جعلت دموعه تسيل إلى الأرض وقال : رحم الله أبا بكر ، لقد أتعب من بعده،رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده،رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده[٢].

إنه أتعب من بعده فى ملاحقته على طريق الزهاد، فالصديق له قدم السبق فى فطم النفس عن المألوفات ، وقطع العلائق عنها حتى أمات من نفسه ما كان حيًا، وأحيا من قلبه ما كان ميتًا، حتى ثبت قدمه على صراط صاحب النعم، وأنزل ما سواه منزلة العدم.

فهذا عبد الرحمن بن عوف يدخل عليه وهو على فراش الموت، فيسلم عليه، فيقول له الخليفة الزاهد: رأيت الدنيا قد أقبلت ، ولما تقبل وهى جائية، وستتخذون ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمون ضجائع الصوف ... ووالله لئن يقدم أحدكم فيُضرب عنقه ـ فى غير حد ـ خير له من أن يسبح فى غمرة الدنيا [٣].

وبذلك ترك أبو بكر للمسلمين من قواعد السلوك أمثلة نادرة فى معيشته

---

(١) الجريش ـ من الجريش : القشر، أو ما سقط من الشىء عند حكه أو طحنه، والمراد هنا : قشر الحبوب المطحونة، المعجم الوجيز، ص ١٠١.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٣، ص ١٤٦ ـ ١٤٧، ورجاله ثقات.

(٣) الحافظ أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ١ ص ٣٤، طبعة دار الكتاب العربى، بيروت.

الزاهدة [١].

وهكذا ظل الصديق يُفنى ذاته عن الدنيا ، حتى ذهبت صفاتها عنه، وخلع على نفسه خلعة التقشف والورع، حتى تخلق بأخلاق الله، فإذا نظر فبأنواره، وإذا نطق فبأذكاره، وإذا تحرك فبأقداره، وإذا بطش فباقتداره، إنه ظل هكذا حتى لقى الله وهو عنه راضٍ.

وقد قال أهل السير : توفى أبو بكر ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمانى ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين، وأوصى أن تغسله أسماء، فغسلته، وأن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر، ونزل فى حفرته ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله [٢].

رحمه الله ورضى عنه، وحشرنا فى زمرته، وجمعنا وإياه فى أعلى فراديس الجنان مع النبى المجتبى العدنان .

تلك قطفة عابرة من زهد الخليفة الورع أبى بكر ﷺ، الذى سبق الكلمات فعجزت عن إدراك حقيقة صفاته الزهدية، ويكفيه ﷺ أنه تفرد بمقام (الصديق)، مما دفع الإمام ابن تيمية ليضعه فى عداد السالكين لطريق الروح فى الإسلام بقوله عنه : وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون [٣]، وقال : إن المشاهدات والمخاطبات رائدها الأول هو الرسول ﷺ لانفراده بالنبوة والرسالة، ثم يأتى بعده أول الأولياء وهو أبو بكر [٤].

(١) د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ٣٢.
(٢)الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٢.
(٣)الإمام ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص ٢٦.
(٤)الإمام ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانية، ص ١٠٧.

هذا هو الخليفة الزاهد فى بريق معدنه، وصفاء تكوينه، ودقة تعامله مع نفسه، وما هذه الصفحات إلا قطرة من محيطه بقدر ما يملأ فى عصفور من ماء محيط شاسع .

obeikandl.com

ثانيًا : سيدنا عمر بن الخطاب

« الأمير الزاهد » :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى: وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم [١] .

يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى بن غالب، ويكنى أبا حفص [٢] .

ولد ﷺ بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة [٣] سنة ٥٨٣م.

لقبه النبى بالفاروق حيث كان إسلامه عزة للإسلام، وبه فرق بين الحق والباطل.

نشأ عمر ﷺ فى مكة وفى رعاية والديه حتى أصبح شابًا قويًا، فعمل بالتجارة فى الصيف وأحيانًا كان يرعى المواشى لأبيه [٤] .

إسلامه ﷺ :

خرج الفاروق يومًا متوشحًا سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ، والغضب يجرى منه مجرى الدم،فلقيه نُعيم بن عبد الله النَّحام،فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال :

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٣ .

(٢) الإمام يوسف بن الحسن بن عبد الهادى الدمشقى الصالحى الحنبلى، محض الصواب فى فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ج ١ ص ١٣١، دار أضواء السلف، طبعة أولى، سنة ١٤٢٠هـ - سنة ٢٠٠٠م.

(٣، ٤) الإمام جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٣ .

أريد هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله، فراوغه النحام محاولًا منعه.

فلما رأى أنه غير منته، قال : فإنى أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا وتركوك، وما أنت عليه من ضلالتك.

فلما سمع مقالته، قال : وأيهم ؟! قال : ختنك، وابن عمك، وأختك [1].

فتوجه الفاروق إلى أخته وزوجها، وكان عندهم (خباب) وكأن الصواعق تملأ سماء عينيه، والغضب يخيم عليه، فلما قرع الباب قالوا : من هذا ؟

قال : ابن الخطاب، وكانوا يقرؤون كتابًا فى أيديهم.

فلما سمعوا حس عمر قاموا مبادرين فاختبؤوا ونسوا الصحيفة على حالها، فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر فى وجهه، فخبأت الصحيفة .

فقال عمر : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرؤون : (طه).

فخرج ختنه وفاطمة بنت الخطاب واقفة، فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال : فلعلكما صبوتما.

فقال له ختنه : أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئًا شديدًا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها عمر نفحة بيده فدمى وجهها، فقالت وهى غضبى : أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٣ .

فلما يئس عمر قال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ : ﴿ طه ۝١ ﴾ [طه : ١] حتى انتهى إلى : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ [طه : ١٤] فقال عمر : دلونى على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس : « **اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام** » .

قال : ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، قال : وعلى الباب حمزة، وطلحة وناس من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلما رأى حمزة وجل الناس من عمر، قال : نعم هذا عمر، فإن يرد الله بعمر خيرًا سيسلم ويتبع النبى ﷺ، وإن يُرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا، قال : والنبى ﷺ داخل يوحى إليه.

قال : فقام رسول الله ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال : « **ما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله ـ يعنى بك ـ من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب** » ، فقال عمر : أشهد إنك لرسول الله : فأسلم وقال : اخرج يا رسول الله [١] .

فأسلم عمر ببركة دعاء رسول الله ﷺ، فوقر فى ضميره الإيمان بالله

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٤٣، ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٤، وفضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل، ج ١ ص ٣٤٤ بتصرف، طبعة دار ابن الجوزى، طبعة ثانية، سنة ١٤٢٠هـ ـ سنة ١٩٩٩م .

والتصديق بما جاء به رسوله ﷺ، وسكنت البغضاء ولم يبق لها مكان فى قلب عمر، وحلت السكينة فى سويداء قلبه، ولم يخطر على بال أحد حينها أن عمر صنديد قريش سيكون بفضل الله تعالى من أتباع رسول الله ﷺ المقربين الذين وجدوا فى قربه غذاءً للروح ، ونبراسًا للعلم الصادق والحكمة الغالية .

عمر الزاهد فى قلب الإمارة :

تولى عمر الخلافة بعد الصديق بوصية منه وبيعة، وإجماع من الصحابة عليه أميرًا للمؤمنين، فهم أمير المؤمنين عمر يخطب فى الناس بإزار مرقع، قال الحسن : خطب عمر الناس وهو خليفة ،وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة [١]، وصاح فى مملكة الخلافة صيحة مدوية متنازلًا عن حقه فى ماله، وجعل نفسه على ماله كوصى لليتامى والمساكين، فقال :

ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم، إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف [٢] .

وكأن قلب الأمير الزاهد يخفق رهبة بعد الإمارة، ولم يطق ثوبها المعلى، فراحت الخشية تمور بين جنبيه حتى زهد عن حال الأمراء، وألقى بتاج الملك من فوق هامته، وإن يومًا لم يبدُ سكونه، وانقشع لباس ليله لِـمَا طرحت فيه السيدة حفصة بنت عمر على أبيها الأمير من رأى،قالت : يا أبت ، يا أمير المؤمنين، لو لبست ثوبًا هو ألين من ثوبك، وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله ﷻ فى الرزق، وأكثر من الخير ؟

فقال : إنى سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله ﷺ

(١، ٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٣ ص ٢٧٦ .

من شدة العيش، فمازال يذكرها حتى أبكاها، فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لئن استطعت لأشركنهما بمثل عيشهما الشديد (أى : النبى ﷺ والصديق ﷺ) لعلى أدرك معهما عيشهما الرخى [١] .

وراح أمير المؤمنين يومًا يبكى على نفسه، وقد قطع علائقه بالدنيا، وأشرقت عليه أنوار الحقيقة والمعرفة ، وأظهر ما يبطن من إيمان عميق، وقد بدت فى نبرات صوته هزة الوجل والزهد عن الدنيا .

إنها هزة كست منطقه حين قال : ليتنى كنت كبش أهلى يسمنونى ما بدا لهم، حتى إذا كنت أسمن ما أكون، زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضى شواءً ، وبعضى قديدًا، ثم أكلونى ، ولم أكن بشرًا [٢] .

إنه الفرار من فتن الدنيا مهما سالت أودية الحياة من عيون ثرائها، أو شامخ جاهها، فرار من الهوى والشهوة والنزوة إلى ظل ظليل فى عالم الترقى الروحانى حتى ترتاح روحه ﷺ فى جسده دون شقاء مادية، أو هيمنة إمارة.

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : كان عمر زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد فى الزيت ، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها، فأتى به فإذا قدر من سنام ومن كبد، فقال : أنى هذا ؟

قالوا : يا أمير المؤمنين من الجزور التى نحرنا اليوم.

قال : بخ بخ ، بئس الوالى أنا إن أكلت أطيبها، وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام، فأتى بخبز وزيت، فجعل يكسر

(١) أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٤٨ .
(٢) أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٥٢ .

بيده ، ويثرد ذلك الخبز [١] .

نعم ، رضى أمير المؤمنين بالخبز والزيت ، وترك الكبد والسنام، فلم تشغله الإمارة عن روحه؛ لأنه أدرك أنها شكل دنيوى إن تبعه تثاقلت روحه بأوزار جسده ، وأصبح كهؤلاء المنشغلين بالدنيا حتى صاروا فيها مجرد أشياء، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تتلاشى ، ولذة لا تدوم ، فأوغلوا فى الحياة الحيوانية ، فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

إن الفاروق لم يأبه بإمارة ولا بسلطة، بل كانت الإمارة فيه كالنذير، ولله دره حين قال :

لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة ، لظننت أن الله تعالى سائلى عنها يوم القيامة [٢].

إنها الخشية بعينها تتبدى فى قول عمر: لو نادى مناد من السماء : أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلًا واحدًا،لخفت أن أكون هو [٣] .

عمر يتوقل معارج الزهاد :

كلما تلبس عمر بالإمارة، كلما ازداد عمقًا فى درب الزاهدين، وأغلق نوافذ قلبه عن علائق الدنيا، وانفتحت عين بصيرته على ساحة نفسه، فاستطاع أن يسبر أغوارها، فارتقى فوق غاياتها، فهام فى معارج الزهاد، واستكان لروحه، واستجاب لندائها، وأخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٧ .
(٢، ٣) أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٥٣ .

ساوى البائس الفقير الذى إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع .

لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة، ولم يهم بمكاثرة الناس فى المال، ويرى مال المسلمين مرتعًا وبيلًا على مَن رعاه فقتر على نفسه تقتيرا، حتى رأى بعض أصحاب رسول الله ﷺ ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش، فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان : وعلى وطلحة والزبير، وقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه، فقال عثمان هلم فنعلم ما عنده من وراء وراء.

فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه، وأوصوها ألا تخبر بهم عمر.

فلقيته حفصة وقالت له فى ذلك، فغضب وقال : مَن هؤلاء ؟ لأسوءنهم، قالت : لا سبيل إلى علمهم، قال : أنت بينى وبينهم، ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع .

قال : فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفًا من شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكه لنا ، فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها.

قال : فأى مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين نربعه فى الصيف، فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه.

قال : فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قدِر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية، وإنما مثلى ومثل صاحبى (النبى ﷺ وأبى بكر ﷺ) كثلاثة سلكوا طريقًا، فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل، ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه، ثم أتبعها الثالث (يقصد نفسه) فإن لزم طريقهما ورضى

بزادهما لحق بهما، وإن سلك طريقًا غير طريقهما لم يلقهما [١] .

هكذا تغلب سراج الروح على ظلمة الجسد فى الفاروق الزاهد .

ومما ورد عنه فى وصف الدنيا :أنه مرَّ على مزبلة فاحتبس عندها، فكأنه شق على أصحابه وتأذوا بها،فقال لهم:هذه دنياكم التى تحرصون عليها [٢] .

وإنا لنعثر على عديد من نماذج السلوك التى يتضح فيها عمر بن الخطاب الزاهد حقًا، وقد جذبت شخصيته انتباه المستشرق (ساخاو) فأطلق عليه اسم (صاحب العظمة ذو الثياب المرقعة) [٣] .

الأمير الزاهد يغير مفهوم الإمارة :

زحفت الإمارة إلى عمر تجر الدنيا فى أذيالها . إنها صولجان وسلطان ومال وقصور وخدم، فزحف عمر يتصدى لها بقوى الرغبة عنها، بل والرغبة عن ظلالها التى حاولت أن تدخل قلبه، فهو راغب فى الصفاء الذى لم تعكره مطامع القياصرة، فلم يعد همهُ زينة الدنيا بل صار يرى بعين بصيرته جمال الجمال، بعد أن أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه، وأصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله تعالى.

فعن طارق بن شهاب ﷺ، قال : لما قدم عمر ﷺ الشام، تلقاه الجنود، وعليه إزار وخُفان وعمامة، وهو آخذ برأس راحلته يخوض فى الماء، فقالوا : يا أمير المؤمنين، يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالتك هذه، فقال : إنا أعزنا

---

(١) عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون،ص ٢٣٩ــ ٢٤٠ بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ ـ سنة ١٩٧٩م .

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب : الزهد، زهد عمر بن الخطاب ﷺ، ص ١١٨ .

(٣) د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ٣٧١ .

الله بالإسلام، فلن يُلتمس العز بغيره [١] .

إن عمر ـ بتلك العبارة ـ قد غير معنى الإمارة، وأسقط صلاحيتها، فالعزة الحقيقية لم تكن وليدة شيء صنعته الدنيا، لا .... إن العزة الحقيقية، والإمارة الحقيقية، هى التى صنعها الإسلام، فهو قلعة الإمارة ، وهو التاج المعلى .

خرج عمر يومًا، وهو رئيس دولته حينها، إلى السوق ومعه الجارود، فإذا امرأة عجوز ، فسلم عليها عمر، فردت عليه، وقالت : هِيهِ يا عُمير ، عهدتك وأنت تُسمىَ عُميرا فى سوق عكاظ تُصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سمعت عمر، ثم قليل سمعت : أمير المؤمنين. فاتق الله فى الرعية، واعلم أنه مَن خاف الموت خشى الفوت .

فبكى عمر.

فقال الجارود : لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته، فأشار إليه عمر : أن دعها.

فلما فرغ، قال : أما تعرف من هذه ؟ قال : لا .

قال : هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها، فعمر أحرى أن يسمع كلامها، أشار إلى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة : ١] وهى خولة هذه [٢].

فها هو عمر يتألق فى سماء الانكسار والزهد والتواضع،فلم يخضع لإمرة الحكم ولا لهيمنة الخلافة والسلطان،بل زهد عن ذلك كله ، وسمع لرعيته

(١) موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من العلماء المختصين، ج ٦، الزهد ص ٢٢٣٣، طبعة دار الوسيلة، المملكة العربية السعودية، طبعة ثالثة، سنة ١٤٢٥ هـ ـ سنة ٢٠٠٤م .

(٢) الإمام ابن الجوزى، الشفاء، ص ٨٧، وانظر : موسوعة نضرة النعيم، ج ٥ ص ١٨٩٦ .

مرعيًا السمع والبصر والفؤاد.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال، : « رأى عمر بن الخطاب ﷺ فى يدى لحمًا معلقًا، فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتهيت لحمًا فاشتريته، فقال عمر : كلما اشتهيت اشتريت !أما تخاف هذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] » [١] .

فقد حرص عمر على ادخار طيباته للآخرة، لذلك صاح وصرخ متمنيًا على الله أن لم يكن، قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض، فقال : يا ليتنى هذه التبنة، ليتنى لم أكن شيئًا ، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى كنت نسيًا منسيًا [٢] .

إن الفاروق تمنى أن يكون تبنة ولم يكن عمر، وذلك قمة الزهد عن الدنيا، مما جعله يستشعر الغربة عنها وهو فيها، بل هى بين يديه يحملها على مضض، لذلك لم يطمع فيها، بل علمنا ألا نطمع فيها فقال : تعلَّمُنَّ أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى [٣] .

وبعد هذا الفهم العميق راح أمير المؤمنين يقلب وجهه فى الدنيا، فإذا بالحكمة الفياضة تتفجر من ينابيع عيون ذاته، وإذا بفراسة غامرة تغمره، وإذا بنفث فى روعه يفصح له عن حقيقة احتياجه من وسائل الدنيا الفانية، فذهب يخبرنا بذلك بقوله : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى :

حُلتان لشتائى وقيظى [٤] ، وما يسعنى من الظهر [٥] لحجتى وعمرتى،

---

(١) الإمام ابن الجوزى،مناقب عمر بن الخطاب، ص ١٧٨، وموسوعة نضرة النعيم، ج ٥ ص ١٨٩٦ .
(٢) الإمام البغوى، شرح السنة، ج ١٤ ص ٣٧٣، والمرجع السابق، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥٣ .
(٤) أى : ثوب للشتاء وثوب للصيف .
(٥) الظَّهر : أما يركب من الدواب .

وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فو الله ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ [١].

وانساب النصح من أمير المؤمنين لولاته كاشفًا لهم عن حقيقة الدنيا، وكأن اليأس يعتصر من فؤاده وتجسده الكلمات، إنه اليأس عما فى الدنيا، فالدنيا لا تعرف طريقًا إلى قلب أشرق بالنور، ومما كتبه لبعض عماله وولاته قوله :

حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه مَن حاسب نفسه فى الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومَن ألْهَتْهُ حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به، لكيما تنتهى عما يُنهى عنه، وتكون عند التذكرة والعظة من أولى النهى [٢] .

إن نصيحة عمر لم تقف عند حد الولاة والعمال، لا ... إنها انطلقت إلى رعيته لئلا ينشغلوا بلهو الدنيا عن إلجام أنفسهم عن الهوى، فها هو الأمير الزاهد يستوقف فضيل بن زيد الرقاشى عند حد نفسه ويقول :

لا يُلهينك الناس عن ذات نفسك، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع النهار بِكَيْتَّ وَكَيْتَ، فإنه محفوظ عليك ما قلته، ولم تر شيئًا أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنةٍ حديثةٍ لذنب قديم [٣] .

وهكذا انصب طلب الفاروق متوجهًا لرضا الله، ولم يكن طلبًا لدنيا يصيبها، أو ملكٍ يتربع على عرشه، إنه قدم لآخرته، وزهد عن دنياه .

---

(١) الإمام أبو حامد محمد الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٢٣٩، طبعة دار الشعب .
(٢) ابن أبى الدنيا، محاسبة النفس والإزراء عنها، ص ٥٩، تحقيق : مصطفى بن على بن عوض، بيروت، سنة ١٩٨٦م ، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ص ٩٥، طبعة دار المعرفة، بيروت .
(٣) ابن أبى الدنيا، محاسبة النفس، ص ١٣٨ .

ولم لا ... وهو القائل : لو تركت عنزًا جرباء إلى جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة [١] .

إن همَّ الرعية والانشغال بهم زاد الأمير زهدًا، فها هو الأمير ينام على رداء مملوء بالحصى، خليفة المسلمين يزهد عن الحرير والديباج وينام على الأرض ووسادته رداء.

فقد ذكر الحافظ ابن الجوزى فى مناقب عمر : بينما عمر ﷺ نائم فى المسجد، قد وضع رداءً مملوءًا حصى تحت رأسه، إذ بهاتف يهتف : يا عمراه! يا عمراه!

فانتبه مذعورًا، فعدا إلى الصوت ، فإذا أعرابى ممسك بخطام بعير والناس حوله، فلما نظر إلى عمر، قال الناس : هذا أمير المؤمنين.

فقال عمر ﷺ : من آذاك ؟ وظن أنه مظلوم، فأنشأ يقول، فذكر أبياتًا يشكو فيها الجدب، فوضع عمر ﷺ يده على رأسه، ثم صاح : واعمراه ! واعمراه ! أتدرون ما يقول ؟ يذكر جدبًا وإسناتًا [٢] ، وأن عمر يشبع ويروى، والمسلمون فى جدب وأزل [٣]، من ذا الذى يوصل إليهم من الميرة[٤] والتمر ، وما يحتاجون إليه، فوجّه رجلين من الأنصار، ومعهما إبل كثيرة عليها الميرة والتمر [٥] .

أى صناعة تلك ؟ ! وأى زهد هذا ؟! إن الفاروق تربى فى جامعة رسول الله ﷺ، فمع زهده وتجوعه ونومه على الحصا وثوبه مرقع يتهم نفسه بالشبع والرى، والله إن هذا لشىء عجاب يصيب بالذهول، ويضع المرء منا فى مواقع المترفين، ونسأل الله السلامة .

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى، التبر المسبوك فى نصيحة الملوك، ص ١٧، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) إسناتًا : من أسنتوا فهم مسنتون، أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا. انظر : لسان العرب لابن منظور، مادة (سنت)، ج ٢ ص ٢١٤، طبعة دار صادر، بيروت .

(٣) أزل : ضيق وشدة. انظر : المرجع السابق، ج ١ ص ٥٦ .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان، وقيل : هى جلب الطعام . انظر : المرجع السابق، مادة (مير)، ج ٣ ص ٥٥٤ .

(٥) الإمام ابن الجوزى، مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٧٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ، والطبقات الكبرى ، لابن سعد، ج ٣ ص ٣١٧، طبعة دار صادر، بيروت .

إن الأمير الزاهد لم يغفل قط عن التأمل فى متع الدنيا والدهشة الأخاذة تملؤه، لا ... ولكنه بالإضافة إلى ذلك نظر نظرة فاحصة ازداد فيها تأمله فى أمور الدنيا والآخرة، يقول ﷺ :

نظرت فى هذا الأمر ، فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا [١] .

إن الأمير ـ رئيس دولته ـ أبطأ يومًا على الناس فى يوم جمعة فخرج، فلما صعد المنبر اعتذر إلى الناس فقال : إنما حبسنى قميصى هذا لم يكن قميص غيره [٢] .

هذا هو حال خليفة المسلمين عمر بن الخطاب. إن الأمر قد وصل به إلى أن يحمل القربة على كتفه [٣] وهو أمير المؤمنين .

ولم يكن ذلك بسبب فقر أو فاقة، لا ، إنه وجد فاستغنى، وملك فزهد، ويشهد لذلك أبو سفيان حين قال: إن الدنيا أرادت ابن الخطاب ولم يردها [٤] .

إنه الأمير الزاهد الذى حكى عنه سيدنا حذيفة حين أقبل عليه، فإذا بالناس بين أيديهم القصاع ، فدعانى عمر فأتيته، فدعا بخبز غليظ وزيت، قال : قلت له : أمنعتنى أن آكل من الخبز واللحم ودعوتنى على هذا، قال : إنى دعوتك على طعامى ، فأما هذا فطعام المسلمين [٥] .

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ٢٠٠ .
(٣) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٩٩ .
(٤) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١١٣ .
(٥) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٢١ .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : أصاب الناس سنة غلا فيها السمن، وكان عمر يأكل الزيت فيقرقر بطنه، فيقول : قرقر ما شئت ، فو الله لا تأكل السمن حتى يأكله الناس، ثم قال : اكسر عنى حرَّةُ بالنار، فكنت أطبخه له فيأكله [١] .

إن أمير المؤمنين عمر قد تشبع بحال رسول الله ﷺ فى الزهد، وأخذ يرن فى قلبه ما رأى منه، فقال ﷺ : لا ينخل لى دقيق، رأيت رسول الله ﷺ يأكله غير منخول [٢] .

إنه من شدة تأثره بحال رسول الله ﷺ كتب لأبى موسى الأشعرى كلامًا يعبر عن ذهنه الفاكه حتى ثبت كلامهُ فى الدهر سرمدًا، فأرهف قلب أبى موسى فكثر العناق فيه، واشتد وجيب القلب فى صدره، وانهمرت الدموع من عينه، إنه كتب إليه قائلًا :

إنك لم تنل عمر الآخرة بشىء أفضل من الزهد فى الدنيا ، وإياك ومذاق [٣] الأخلاق ودناءتها [٤] .

هكذا كانت حياة سيدنا عمر، مليئة بالزهد، ولا مكان للدنيا فيها، حتى قاده الزهد إلى طريق الله تعالى: وفجر فى قلبه كنوزًا من اللذات الروحية،لذة المعرفة ، ولذة الإيثار ،ولذة الإنفاق،ولذة التقشف والورع،كل ذلك لوجه الله تعالى، وبذل كل بذل فى سبيل إسعاد الرعية والتماس الكمال، إرضاءً لكمال الكمال .

وبعد هذا السعى الرصين، وبعد أن ارتفع سيدنا الزاهد عمر من عالم الأرض إلى ملكوت السماء، وبعد أن تصفى فؤاده وسعد بإشراق أنوار المعرفة،

(١،٢)المرجع السابق، نفس الصفحة .

(٣) مذاق الأخلاق : يعنى اختلاط محمودها بمذمومها، من قولهم : مذق اللبن أو الشراب بالماء : إذا خلطه به فأكثر فيه الماء .

(٤)المرجع السابق، ص ١٢٣ .

وتذوق لذة الحياة الروحية، وأيقن أنها تفوق اللذات المادية، إذا بالحقيقة الخالدة تتلألأ ، وإذا بوابل من الرحمة بعد العناء فى الدنيا يتدلى من عند الله تعالى ليلف روح الأمير فى لفافات الورود وحواصل الطيور لتسرح بين أغصان اللذة الحقيقية الباقية .

الأمير الزاهد فى موكب الشهداء :

تعلقت عيون القوم دهشة بعد أن حلت فزعة أخذت بمجامع القلوب، وازدادت خفقاتها وقد زاغت الأبصار، وبقى الناس فى ذهول للحظات بعيدة، ثم راحت صيحات الهلع تزلزل الإمارة كلها، وماج الناس بعضهم فى بعض، وبكت الأرض على افتقادها وطأة عمر، وغردت السماء لاستقبالها روح عمر .

فها هو الأمير الزاهد كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : يُطعن فى السحر، طعنهُ أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان مجوسيًا [1] ، وذلك حين قيامه للصلاة، كما حكى عمرو بن ميمون بقوله : إنى لقائم ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مرَّ بين الصفين، قال : استووا، فإذا استووا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر، فسمعته يقول : قتلنى ـ أو أكلنى ـ الكلب ! حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

(١) أ . مجدى فتحى السيد، صحيح التوثيق فى سيرة وحياة الفاروق عمر بن الخطاب، ص ٣٦٩، طبعة دار الصحابة، طبعة أولى، سنة ١٤١٧ هـ ـ سنة ١٩٩٦م .

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلى عمر فقد رأى الذى رأى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، فلما انصرفوا، قال : يا بن عباس ، انظر من قتلنى، فجال ساعة، ثم جاء فقال : غلام المغيرة، قال : قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ـ وكان العباس أكثرهم رقيقًا ـ فقال : إن شئت فعلت : قتلناهم، قال : كذبت ـ أى أخطأت ـ بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم :

فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول : لا بأس، وقائل يقول : أخاف عليه، فأتى بنبيذ [1] فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه، فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت.

فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وقال : يا عبد الله بن عمر، انظر إلى ما علىَّ من دَيْن، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال : إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل فى قريش، ولا تَعْدهُم إلى غيرهم، فأدِّ عنى هذا المال، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل : يقرأ عمر عليك السلام، ولا تقل : أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يبقى مع صاحبيه .

(١) المراد بالنبيذ المذكور: ثمرة نبذت فى الماء، أى : نقعت فيه ، وكانوا يفعلون ذلك لاستعذاب الماء .

فقالت : كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى.

فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال : ارفعونى، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال: الذى تحب يا أمير المؤمنين، أذنت ؟

قال : الحمد لله، ما كان من شىء أهم إلىَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملنى، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذن لى فأخلونى، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين.

قال : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر، قال : يستأذن عمر بن الخطاب، قالت عائشة : أدخلوه. فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه [١] .

وعن عثمان بن عفان، قال : أنا آخركم عهدًا بعمر، دخلت عليه ورأسه فى حجر ابنه عبد الله، فقال له : ضع خدى بالأرض، قال : فهل فخذى والأرض إلا سواء ؟ قال : ضع خدى بالأرض لا أم لك، فى الثانية، أو الثالثة،وسمعته يقول : ويلى وبل أمى إن لم تغفر لى حتى فاضت نفسه [٢]، وخرج من الدنيا نقى الثوب ، بريئًا من العيب .

قال سعد بن أبى وقاص : طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة [٣] سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم. قال

(١) رواه الإمام البخارى، كتاب : فضائل الصحابة، برقم ٣٧٠٠، طبعة دار الفكر، طبعة أولى، سنة ١٤١١هـ ـ سنة ١٩٩١م .
(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٩٠ .
(٣) تاريخ الطبرى، ج ٥ ص ١٢٨ .

معاوية : كان عمر ابن ثلاث وستين، وقال قتادة : ابن إحدى وستين، وصلى عليه صهيب [١] ، وكانت خلافته ﷺ عشر سنين ونصفًا وأيامًا [٢].

رحم الله أمير المؤمنين، فارس الزهد فى ساحة الدنيا، وجامع معانى الورع فى حاله ومقاله وصفاته، حتى تصببت أصول الحكمة من مزن فراسته القابعة فى عين بصيرته، المتصلة بجذور قلبه، ولا عجب لقلب ملىء بحب الله ورسوله ﷺ دون مزاحمة سواهما أن يغيب صاحبه عن الدنيا وهو حاضر فيها، وأن يحضر فيها وإن غابت هى عنه .

فلم تعد له صلة بها وهو فيها راع، ولا لها فيه ثغر ولا عين، إذن فلا يسأل عن حال الأمير الزاهد من أين ؟

رضى الله عن الإمام الأمير، وحشرنا فى زمرته، وآنسنا بصحبته يوم القيامة مع صاحبيه، رسول الله ﷺ والصديق ﷺ ... آمين .

(١، ٢)أبو القاسم الأصفهانى، سير السلف، ج ١ ص ١٦٠، طبعة دار الراية، الرياض، طبعة أولى، سنة ١٤٢٠هـ ـ سنة ١٩٩٩م .

ثالثا : ذو النورين عثمان بن عفان

كان من رؤوس الزهاد الأوائل أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان قرشيًا أمويًا يجتمع مع النبى فى عبد مناف [١].

ولد بالطائف بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح (سنة ٥٧٦م)، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ [٢].

إسلامه ومطلع زهده (رضى الله عنه وأرضاه) :

لما أهل الإسلام بنوره على مكة ، كان عثمان من السابقين إلى الاستضاءة بمشكاته، ولإسلام عثمان بن عفان قصةٌ مازال يرويها الرواة :

ذلك أن أبا بكر دعاه إلى الإسلام فأسلم، ولما عرض أبو بكر عليه الإسلام قال له : ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التى يعبدها قومك، أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع ؟ فقال : بلى، والله إنها كذلك، قال أبو بكر : هذا (محمد بن عبد الله) قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه ؟ فقال : نعم .

وفى الحال مر رسول الله ﷺ ، فقال : «يا عثمان ،أجب الله إلى جنته، فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه» قال : فو الله ما ملكت حين سمعت قوله أن

(١ ،٢) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٤٠ .

أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت ابنته رقية، وكان يقال: أحسن زوجين رآهما إنسان : رُقية وعثمان، وكان زواج عثمان لرقية بعد النبوة لا قبلها .

وفى إسلامه ﷺ تقول خالته سُعدى :

هدى الله عثمان الصفىَّ بقوله ... فأرشده والله يهدى إلى الحق
فبايع بالرأى السديد محمدًا ... وكان ابن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته ... فكان كبدر مازج الشمس فى الأفق
فداؤك يا بن الهاشميين مهجتى ... فأنت أمين الله أرسلت فى الخلق

ولما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية" فأوثقه رباطًا، وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدَث ! والله لا أخليك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال : والله لا أدعه أبدًا، فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه [1] .

وهذا الموقف يترجم عن زهد عثمان بمجرد إسلامه، فقد تخلى عن ديانة آبائه ، ورغب عنها بما تحمله من إباحة البذخ والرقص والخمر والسرف والترف، ووقفت نبتة الإيمان الراسخ فى وجه العواصف من قبل أن يشتد عودها .

وبعد الهجرة، خرج النبى ﷺ إلى بدر ، وخلف عثمان على ابنته (رقية) يمرضها، وضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهدها، ولما ماتت (رقية)

(١) د .عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة الصحابة، ص ٥٥٨، طبعة دار الأدب الإسلامى، طبعة أولى ، و أ . محمد رضا، ذو النورين عثمان بن عفان، ص ١٤ وما بعدها بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٢هـ ـ سنة ١٩٨٢م .

زوجه النبى ﷺ (أم كلثوم) بعد (رقية)، فلقب بذى النورين، وقال : لو كان عندى ثالثة لزوجتها عثمان [١] .

ومن ألقاب سيدنا(عثمان) : (صاحب الهجرتين)؛ لأنه أول مهاجر إلى الله تعالى بأهله، فقد هاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه، ثم عاد إلى مكة،وهاجر إلى المدينة المنورة فاستحق عن جدارة لقب صاحب الهجرتين[٢].

وهذه الهجرة بعينها فرار من الدنيا إلى الآخرة، وذلك عين الزهد، فقد ترك سيدنا عثمان مكة وأهلها، وترك عشيرته وأقرباءه فارًا إلى الله ورسوله .

عثمان الزاهد فى معية رسول الله ﷺ :

لقد تنازل عثمان لإسلامه وهجرته عن جاهه وماله، وأخيرًا عن حياته فى سماح منقطع النظير، ولو نظرنا إليه وهو يعطى للدعوة أمواله بغير حساب لرأينا رجلًا من طراز فريد[٣] .

وقد علم النبى ﷺ عثمان قيمة الدنيا، فمع أنه ولد وتربى لأب كان من أكبر التجار فى عصره، لكنه مع حياة الترف والرفاهية كان زاهدًا، حليم الخلق، طيب النفس، سمح الطبيعة، كما كان مشهورًا بالتواضع والحياء، وهذه الخصال، وتلك المناقب نادرًا ما نعثر عليها عند الأغنياء الذين ينشؤون فى ظلال وارفة من نعيم الحياة ورغد العيش، ولين الكسب ، والكبر والغرور صنو الثراء، ولا يجمع الحلم والتواضع والمروءة والزهد مع الغنى ورغد

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩١ .
(٢) د . محمود أبو الفتوح السيد، أوائل الزهاد، ص ٩٤ .
(٣) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول ﷺ، ص ٢٥٠، طبعة دار الفكر .

العيش إلا سمح كريم جواد، وهو ذلك كعثمان بن عفان [1]، إنه فى معية الرسول ﷺ .

نعم ، ما إن دخل ذو النورين فى معية الرسول ﷺ إلا وانجلى عن شمس قلبه ظلام الغيم، وطلعت شمس إيمانه من سماء أنوار فؤاده المكتسبة من مشكاة أنوار النبى ﷺ، فرأى بعين بصيرته حقائق الأمور، وارتفعت مكانة إيمانه فوق كل ميل لسواها، إذ كيف يكون ميل لسواها والأمر مأخوذ من فوق معرفة وذوق، ورثًا نبويًا محفوظًا، ومقامًا فى مدارج الزهاد ملحوظًا.

إن عثمان لم يأبه بمال فى سبيل نصرة دينه، بل زهد لأجله عن كل دنيوى، فها هو يوم شاهد على ذلك أبد الدهر من أيام كثيرة، إنه يوم العسرة عند الاستعداد لغزوة تبوك، والجيش يحتاج إلى عتاد وإنفاق وإعداد والوقت فى ذروة الحرج، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك بالصدقة، وحثهم على النفقة فجاؤوا بصدقات كثيرة.

فكان أول من جاء أبا بكر الصديق، فجاء بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقًا من تمر، وجهز عثمان ﷺ ثلث الجيش، جهزهم بتسعمائة وخمسين بعيرًا وبخمسين فرسًا .

قال ابن إسحاق : أنفق عثمان ﷺ نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، وقيل : جاء عثمان ﷺ بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجر

(١) د . سيد الجميلى، العشرة المبشرون بالجنة، ص ٨٥، طبعة دار الكتاب العربى، طبعة أولى، سنة ١٤٠٤هـ ـ سنة ١٩٨٤م .

رسول الله ﷺ ، فقلبها فى حجره وهو يقول : «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، وقال رسول الله ﷺ : « من جهز جيش العسرة فله الجنة » [١] .

ولم لا ... وقد هانت عليه الدنيا طلبًا للآخرة، وهان عليه الجاه فداءً لدين الله ؟ !

وفى قول النبى ﷺ أخْذٌ بيد عثمان وغيره ليتعلموا فى جامعته معنى الزهد، وليعلموا هوان الدنيا أمام نعيم الآخرة .

وقد بدا زهد عثمان ﷺ عن المال، يوم أن ألقى المسلمون عصاهم واستقروا فى المدينة عند هجرتهم إليها، وقد فوجئوا بمشكلة من أعصى المشكلات فى هذه البيئة القاحلة الممحلة، والمفازة الجرداء، إذ لم يكن ثمة ماء، وكان بها عين تفيض بماء عذب، تدعى (بئر رومة) ، وصاحبها رجل يهودى يبيع ملء القرب ماءً بمُد، وكان رسول الله ﷺ يشتهى ماءها، ويتمنى لو أن أحدًا من الصحابة اشتراها، فينساب ماؤها الفرات فى لهاة الظامئ، فلما استشعر عثمان هذا الميل من رسول الله ﷺ سارع ﷺ وأرضاه بشرائها ومساومة اليهودى عليها، وكما نعرف عن اليهود وماديتهم من قديم الأزل، يعشقون المال ويحبونه بينهم، واشترى عثمان من اليهودى نصفها باثنى عشر ألف درهم على أن تكون لليهودى يومًا ولعثمان يومًا، فكان المسلمون يستسقون فى يوم عثمان ويدخرون ما يكفيهم لليوم التالى [٢] .

فها هو عثمان يستغنى عن المال، ويجود به زاهدًا عنه، ويفتح يديه وقلبه

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها ، و أ . محمد رضاف ذو النورين عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين، ص ٢٢، طبعة دار الكتب العلمية، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٢هـ ـ سنة ١٩٨٢م .

(٢) د . السيد الجميلى، العشرة المبشرون بالجنة، ص ٩١ بتصرف .

وصدره ووجدانه طلبًا لرضا الله تعالى بغير حدود .

يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : قحط الناس فى زمان أبى بكر، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تمسون غدًا حتى يأتيكم فرج الله، فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فسألهم : كم تربحوننى ؟

قالوا : العشرة اثنى عشر.

قال : قد زادنى.

قالوا : فالعشرة خمسة عشر.

قال : قد زادنى.

قالوا : من الذى زادك ؟

قال: إنه الله زادنى بكل درهم عشرًا، فهل لديكم أنتم مزيد ؟

فانصرف التجار عنه، وهو ينادى : اللهم إنى وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب [1].

إنه الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله، فصار ذلك فى قلب عثمان ألذ من كل نعيم، فالمال لا يزاحمه فى طريقه إلى الله فقد زهد عنه، وصار أسمى أمانيه أن يأنس بقرب الله، إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها، ولذة لا كدر لها، فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل سافلين، فعثمان ذاق

(١) المرجع السابق، ص ٩٢ .

من الشرب بيدى رسول الله ﷺ ، فعرف كيف يزهد عن المال فى سبيل طلب ما هو أرقى منه، فراح التلميذ ليتأسى بمعلمه فى جامعة الزهد .

ذو النورين (الخليفة الزاهد) :

بويع ﷺ يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين، وعاش فى الخلافة اثنتى عشرة سنة، وقيل : إلا اثنتى عشرة ليلة [١] .

ولما جاءته الخلافة ﷺ خرج إلى الناس وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، وقال فيما قال : ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلًا ؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلًا والذى هو خير، فقال ﷻ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الكهف] [٢] .

إن الخليفة الزاهد قد استقبل خلافته بالزهد فأصابها بالنكال وخيبة الأمل من نيل طلبتها منه، استقبلها وقد أقنع نفسه بغرورها، فهى لون من ألوان

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩٤ .
(٢) انظر : البداية والنهاية، للإمام الحافظ أبى الفداء ابن كثير، ج ٤ ص ١٥٦ .

الدنيا، إنه استقبلها وقد تدرع من فتنتها بالاستغناء عنها وعدم الرغبة فيها، كى لا تهب الوساوس على ساحة قلبه آخذة فى اقتلاع بذور اليقين منها، تلك البذور التى استقرت فى أغوار ذاته وهجست بها نفسه .

واستشعر ذو النورين عند الخلافة كأن أسجافًا [١] ترتفع عن قلبه ، وأن نور الزهد يزداد إشراقًا فى عين ذاته، وأن روحه تزداد رفعة من عالمه المحدود إلى عوالم السمو والترفع والنور.

يقول عبد الله بن شداد : رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم،وإنه يومئذ لأمير المؤمنين [٢].

أمير المؤمنين عليه ثوب بأربعة دراهم، يا الله ! فقد نزع الحلل وألقى تاج السلطة ولف نفسه فى ثوب بأربعة دراهم، إنه داهم الدنيا قبل أن تداهمه.

يقول شرحبيل بن مسلم : كان عثمان ـ أيام إمارته ـ يطعم الناس طعام الإمارة، ويأكل هو الخل والزيت [٣].

وكأنى بالخليفة الزاهد حين فعل ذلك قد أدرك كنه التورع عن صفات الأمير، وكأنى به ـ وهو الزاهد عن صولجان الإمارة ـ قد انعكست فيه أنوار زهده إلى محل الإلهام ، فتفجرت جداولها وأنهارها، فتكشفت له سيرة الدنيا .

إن الخليفة وهو فى تقلباته بين جنبات زهده كانت تعتريه هالة من الخوف، خوف كلما ارتفعت موجته كلما علاه تخلٍّ عن متعه ورغباته، بل غير معنى

(١) جمع سَجْف ، وهو الستر.
(٢) الحافظ أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٠ .
(٣) د . السيد الجميلى، العشرة المبشرون بالجنة، ص ٩٢ .

الرغبة لديه من رغبة فى الدنيا إلى رغبة عنها، فأصبح يقوم الليل إلا هجعة كما روى الإمام أحمد [١].

خوف جعله يستصغر الدنيا، بل واستصغر نفسه فيها حتى قال : لو أنى بينى وبين الجنة والنار لا أدرى إلى أيهما يؤمر بى ، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيهما أصير [٢] .

وهكذا ظل الخوف يسوق الزهد، والزهد يسوق عثمان حتى فقد الثقة فى مصيره، مع أنه ملأ كفيه من زاد الآخرة، إنه من شدة زهده ـ وهو الخليفة ـ رُئى نائمًا فى المسجد فى ملحفة ليس حوله أحد [٣].

ورئى وهو يقيل فى المسجد ـ وهو يومئذ خليفة ـ ويقوم وأثر الحصا بجنبه [٤].

وليس ذلك إلا من قلب حجبت عنه صفة الإمارة ، ورسخت فيه صفة الورع ، فصار محجوبًا عن الدنيا بتجلى الحق .

إن الأمير أصبح لا يأبه بالإمارة، فعن ميمون بن مهران قال : أخبرنى الهمدانى أنه رأى عثمان بن عفان وهو على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل [٥] فها قد بسط له ولغلامه حالًا واحدة، استوى معه على ظهر دابة ، ولم يأمر الغلام بالسير خلفه أو أمام دابته، لا ، إنها إذابة رفعة الإمارة فى معنى الإنسانية حتى أُسقطت معالم السلطة بالزهد، وأُبطلت صفة الخلافة بالمساواة .

(١-٣) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٢٩ .

(٤-٥) انظر : حلية الأولياء، لأبى نعيم الأصبهانى، ج ١ ص ٦٠، والإمام أحمد بن حنبل، فى كتاب : الزهد، ص ١٢٧ .

شيء من مواعظه ﷺ في الزهد :

لقد ثار إشراق الأنوار في قلب سيدنا عثمان، فكثر خروجه إلى قومه ليدعوهم إلى الهدى والزهد بعزم يفل الحديد، ومن مواعظه للناس قوله :

إن الله تعالى إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المسير إلى الله، اتقوا الله، فإن تقواه جُنَّة من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير، ألزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابًا [١] .

إن الخليفة كان يطمح في مواعظه مناشدة ملكوت السماء، فتدفقت مواعظه لذلك؛ لأنه أدرك أن النفس لا تتهلل إلا للقوة والمال واللذة الجسدية، فراح يعظ عامة المسلمين بالأمصار ، فكتب إليهم :

أما بعد ، فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم [٢].

وخطب ﷺ فقال : ابن آدم . ن ملك الموت الذى وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك ، واستعد له ولا تغفل، فإنه لا يغفل عنك [٣] .

إنه يحذر من الغفلة بالدنيا عن الآخرة، ويحث على الانتباه حتى لا يؤخذ المرء على غرة .

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٢٢٦ .
(٢) عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٦٩ .
(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٢٢٧ .

ومن ألوان مواعظه فى ذلك قوله فى خطبته : أيها الناس اتقوا ، الله، فإن تقوى الله غُنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورًا لظلمة القبر [١] .

وهكذا كان عثمان لا يغفل عن متابعة رعيته ومعاينة أحوالهم، وتربية الزهد عن دنياهم ، حتى لا تشرد أهواؤهم إلى الشهوات، فتتحمل أرواحهم من أوزار الأجساد الكثير والكثير .

عثمان يمضى إلى حاله شهيدًا زاهدًا :

مع ما ملأ الشعاب ـ فى أيام خلافة عثمان ـ من ترف وفرج، إلا أن سدَّ القناعة لم يمنع هياج موج عارم من البطر، فبعض الناس لما شبعوا بطروا، فعتبوا على عثمان أمورًا، لو فعلها ما عاتبوها عليه، ولم يكتف هؤلاء بالعتْب، ولو أنهم اكتفوا به لهان الأمر، فلقد ظل الشيطان ينفخ فى أرواحهم من روحه، ويبث فى نفوسهم من شره، حتى تألبت عليه طائفة كبيرة من أوباش [٢] الأمصار، فحصروه فى داره نحوًا من أربعين ليلة، ومنعوا عنه الماء العذب، وقد تناسى هؤلاء الظلمة الطغمة [٣] أنه هو الذى اشترى لهم " بئر رومة " من ماله الخاص ليرتوى منه سكان المدينة وورَّادها، ولم يكن لهم قبل ذلك ماء عذب يرتوون منه.

ثم إنهم حالوا دونه ودون الصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ، وقد تعامى

(١) نفس التخريج السابق .
(٢) أوباش : أى جموع من قبائل شتى .
(٣) الطغمة : الفئة القليلة .

هؤلاء عن أنَّ ذا النورين هو الذى وسَّع ثانى الحرمين من خالص ماله، ليتسع للمسلمين بعد أن ضاق بهم ذرعًا .

ولما اشتد على عثمان الكرب، وتفاقم عليه الشر نَفَر إلى حمايته نحوٌ من سبعمائة من الصحابة وأبنائهم، فيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، والحسن والحسين أبنا سيدنا على بن أبى طالب، وأبو هريرة، وغيرهم ... وغيرهم .

لكن عثمان ذا النورين، وصاحب الهجرتين، وباذل المعروف، آثر أن يُراق دمُه على أن تراق دماء المسلمين دفاعًا عنه، وفضل أن تُزهَق روحه على أن يقتتل المسلمون دونه، فعزم على الذين نفروا إلى حمايته أن يتركوه لقضاء الله، وقال لهم : أُقسم على مَن لى عليه حق أن يكف يده، وقال لأرقائه [1]: مَن أغمد منكم سيفه فهو حر.

ولقد غفت عين الخليفة للحظات، فيرى النبى ﷺ ومعه صاحباه أبو بكر وعمر بن الخطاب، وسمع الرسول ﷺ يقول له : « **أفطِر عندنا الليلة يا عثمان**»، فأيقن عثمان أنه لاحُقُ بربه، مقبل على لقاء نبيه .

أصبح عثمان ـ رضوان الله عليه ـ صائمًا، ودعا بسراويل طويلة فلبسها خشية أن تكشف عورته إذا قتله الأثمة السفاحون، وفى يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة قُتل العَبَّاد الزَّهَاد، الصوَّام القوَّام، جمَّاع القرآن الكريم، صهر رسول الله ﷺ، فلحق بجوار ربه وهو ظمآن صائم، وكتاب الله منشور بين يديه.

---

(١)لأرقائه : أى عبيده .

وحسْبُ المسلمين عزاءً أنه لم يكن فى قتلة عثمان صحابى، ولا ولد صحابى إلا رجلًا واحدًا شارك البغاة الطغاة فى أول الأمر ثم استحيا وارتدع [١] .

وقد اختلف فى قاتله فقيل : الأسود التجيبي من أهل مصر، وقيل : جبلة بن الأبهم، وقيل : سودان بن رومان المرادى، وقيل:محمد بن أبى حذيفة،ودفن ﷺ بالبقيع، عن عمر يناهز التسعين تقريبًا [٢].

رحم الله الخليفة الزاهد، وجمعنا معه فى أعلى فراديس الجنان، وعلمنا منه ما ينفعنا فى الدنيا والآخرة .

(١) د . عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة الصحابة، ص ٥٦٩ وما بعدها بتصرف .
(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩٥ بتصرف .

obeikandl.com

رابعًا : أبو الحسن على بن أبى طالب

واسم أبى طالب : عبد مناف بن عبد المطلب .

وأم سيدنا على : هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت [١] .

وسيدنا علىّ هاشمى قرشى، ابن عم رسول الله ﷺ، أول من أسلم من الصبيان [٢] ، ولد سنة ٦٠٠ بعد الميلاد بمكة، وكنيته (أبو الحسن) نسبة إلى ابنه الحسن[٣]، فقد رزقه الله بالحسن والحسين من السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ومن ثم كان إعزاز النبى ﷺ بعلى وأبنائه وأهله [٤] .

وهو أول هاشمى ولد بين هاشميين، والخليفة الرابع، وأول خليفة من بنى هاشم، وأحد العلماء والشجعان المعروفين والزهاد المذكورين، والخطباء المفوهين .

وكان حين أسلم لم يبلغ الحلم، قال ابن إسحاق : إنه كان يومئذ ابن عشر سنين، وكان أصغر من جعفر وعَقيل وطالب.

كفله النبى ﷺ قبل أن يوحى إليه ؛ لأن قريشًا أصابتها أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا وضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا وضمه إليه تخفيفًا عن أبى طالب .

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩٦ .
(٢) د . السيد الجميلى، العشرة المبشرون بالجنة،ص ١٠٣ .
(٣) أ . محمد رضا، الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ رابع الخلفاء الراشدين، ص ٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت .
(٤) د . السيد الجميلى، العشرة المبشرون بالجنة، ص ١٠٣ .

هاجر عليٌّ إلى المدينة،وشهد بدرًا،وأُحُدًا،والخندق،وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله فى الجميع بلاء حسن وأثر عظيم، وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء فى مواطن كثيرة بيده [١] .

على يتسور شرفات الزهد :

انبجست فى عليٍّ عيون الروح، وأجرى فى قلبه من مكنونة الزهد، ما أمده أسمى منزلته حتى تسوَّر مسالك الزهاد ،وتجسدت معانى الترفع عن الدنايا فى ذاته، وتربعت الحكمة فى منطقه، فكانت عالية الأوج، سامية المكانة، وترك الراحة آخذًا بالعزائم والمجاهدات، وسلك أوعر طريق فاجتاز عقباتها الكؤود، وما أوعر طريق إقحام الشهوات، إنه أقحمها حتى راحت كثافة ماديته ، وصارت لطيفة كروحه، فالتقى فى سيدنا عليٍّ لطف الروح ولطف الجسد، حتى أصبح طريق القرب سهل المنال بالنسبة إليه .

زهده فى طعامه ﷺ :

لم يكن زهد عليٍّ لفقر، لا ... فإنه ملك وزهد، يقول ﷺ : لقد رأيتُنى مع رسول الله ﷺ وإنى أربط الحجر على بطنى من الجوع، وإن صدقتى اليوم لأربعون ألفًا [٢] .

وإن عليًّا بهذا قد تنزه عن ملاحظة كوْن جسمه، وارتقى بمتابعة أفلاك روحه، ومن ألوان مطالبة جسده المدحوضة منه بحرمان نفسه منها أنه أتى

(١) أ. محمد رضا، على بن أبى طالب، ص ٥ .
(٢) فى حلية الأولياء، لأبى نعيم : ألف دينار ، انظر : الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٣٣ .

بفالوذج [١] فوضع قدامه، فقال : إنك طيب الريح حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتده [٢] .

وفى إعراضه ﷺ عن الفالوذج خشية اعتياده، شدة حذر من الوقوع فى دائرة إرضاء النفس ، حتى تأخذه شيئًا فشيئًا إلى مطالبات دنيوية تكثف جسده على روحه بعد لطف وصل إليه بجهاد مرير، وها هو يشترى تمرًا بدرهم، فحمله فى ملحفته، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ،ألا نحمله عنك، قال: أبو العيال أحق بحمله [٣] .

زهده ﷺ فى لباسه :

لقد ثار برد الزهد من قلب سيدنا علىّ حتى حجب عن ظاهره معالم الترف، فارتدى أزهد اللباس، إنه كان يتصدق بماله، ولم يلتفت أبدًا إلى حاجته من هذا المال، حتى لم يبق عنده من المال شيئًا، وأبى أن يأخذ من نصيبه من بيت المال.

فعن مروان بن عنترة، عن أبيه، قال دخلت على علىّ بن أبى طالب وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد.

فقلت : يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبًا فى هذا المال وأنت ترعد من البرد، فقال : إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئًا، وهذه القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى، أو قال : المدينة [٤] .

---

(١) الفالوذج : نوع من الحلوى .

(٢) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣٨٣ .

(٣) الشيخ. محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٤٩ . وأخرجه الإمام أحمد، فى كتاب : الزهد، ص ١٣٣ .

(٤) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣٨٠ .

وخرج ﷺ يومًا بسيفه إلى السوق، فقال : من يشترى منى سيفى هـذا؟ فلـو كان عندى أربعة دراهم أشترى بها إزارًا ما بعته.

وكان ﷺ إذا لبس قميصًا مد يده فى كمه فما فضل من الكـم قطعـه، وقـال : ليس للكم فضل عن الأصابع [١] .

إن سيدنا على لم يرتهن نفسه بتدبر ما يزين هيكله الخـارجى، وإن كـان ثمة ارتهان لنفسه فلزينة روحه وقلبه وجواه، حتى نال موقعًا فى العبوديـة صـعب المنال، يحتاج فى سبيل الوصول إليه لأرفع الرجال، وقد وضع النبـى ﷺ سـيدنا عليًا فيه، فقال ﷺ « **يا علىّ ، إن الله قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحـب إلى الله تعالى منها، هى زينة الأبرار عند الله ﷻ، الزهد فى الـدنيا، فجعلـك لا تـزرأ من الدنيا شيئًا، ولا تزرأ الدنيا منك شيئًا ، ووهب لك حب المساكين،فجعلك ترضى بهم أتباعًا، ويرضون بك إمامًا** » [٢] .

وإن عليًا بهذا قد توقل معارج الأبرار، وبلغ منزلًا لا يُبـارى، فإنـه اسـتغنى عن الدنيا، وعجزت الدنيا عن نيل شىء منه وقد زهـد عنهـا، ولم يأخـذ منهـا شيئًا إلا ما يستر جسده أو يقم أوده، وتلك نظرة لا تعتبر؛ لأنها نظـرة لا تغنـى من الزهد شيئًا، فإن مثلها فى أحواله مثل ما يمـلأ فَّ عـصفور مـن مـاء محيط شاسع.

وقد سُئل ﷺ عن رداء وإزار قـد وثقـه بخرقـة، فقـال : إنـما ألـبس هـذين الثوبين ليكون أبعد لى من الزهو [٣] وخيرًا لى فى صلاتى، وسنة للمؤمنين [٤] .

---

(١) نفس التخريج السابق .
(٢) الإمام الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٧١ .
(٣) الزهو : الكبر والخيلاء والفخر .
(٤) الإمام . محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٤٩ .

وقد رئى ﷺ وعليه إزار غليظ، ويقول : اشتريته بخمسة دراهم، فمن أربحنى فيه درهمًا بعته إياه [١] .

لقد اتخذ علىٌّ الدنيا مطية، ولم يسمح لها أبدًا بأن تحكمه بثوب أو هيئة أو لقمة.

وفى مشهد آخر رئى وقد ركب حمارًا ودلى رجليه إلى موضع واحد، ثم قال : أنا الذى أهنت الدنيا [٢] فها هو قد دلى رجليه ولم يحتج للدنيا، وفر منها كلما طلبته حتى أصابها باليأس والحبط لمَّا لم تنل منه ولم ينل منها .

كلمات زاهدة من مواعظه ﷺ :

لم ينقطع منطق أمير المؤمنين علىّ من مواعظه، صارفًا الناس عن التشبث بالدنيا والهوى، فقد عكس لسانه صورة حاله، وترجم عن حقيقة ما يبطنه القلب من أحواله، ومن تعبيراته ومواعظه ﷺ قوله :

ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلةً، ولكُلٍّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل وحساب، وغدًا حساب ولا عمل [٣] .

وقال ﷺ مهنئًا الزاهدين فى الدنيا، المجاهدين لشهواتهم فيها :

طوبى للزاهدين فى الدنيا، والراغبين فى الآخرة، أولئك قوم اتخذوا أرض

---

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٥ .

(٣) رواه البخارى، فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ج ١١ ص ٢٣٩، كتاب : الرقاق، باب : فى الأمل وطوله،تحقيق : محب الدين الخطيب، تبويب محمد فؤاد عبد الباقى، طبعة دار الريان للتراث .

الله بساطًا، وترابها فراشًا، وماءها طيبًا، والكتاب شعارًا، والدعاء دثارًا، ورفضوا الدنيا رفضًا [١] .

بهذه الكلمات الزاهدة ترجم الإمام علىّ بوثيق عباراته، ودقيق إشاراته عن موقف الرجال من الدنيا، وخفق قلبه، وذهبت نفسه شعاعًا خشية أن يحيق به أو برعيته مكروه أو جذبة لتلك الدنيا الفانية، فراح يعظ فيهم قائلًا :

إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة، ألا وإن الدنيا ارتحلت مُدبرة[٢] .

ويعلو الوجل فى قلب الإمام، وتزداد حدة الفزع فى لديه ، حتى انصرف بهمة عالية يهُسُّ فى قلوب الناس معانى الشوق للباقى، والنزوع من ضيق طوق الفانى، فوعظهم والرغبة فى الآخرة تملؤه، وقال فيهم :

ألا من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصائب، ألا وإن لله عبادًا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين، وأهل النار فى النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أيامًا قليلة للحق راحة طويلة [٣] .

---

(١)الإمام . أحمد بن حسين البيهقى، شعب الإيمان، بتحقيق : محمد السعيد بسيونى، ج ٢ ص ٣٧٢، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٠م .

(٢) رواه البخارى، انظر : الفتح، ج ١١ ص ٢٤٠ .

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٣٨٤ .

ومن كلامه أيضًا فى ذلك ما قاله فى خطبته ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد : فإن الدنيا قد أدبرت، وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، ألا أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر [١] .

وقام يومًا وصيحة النذير تبلغ منه مبلغ الرهبة والنفير، فقال :

أيها الناس ، اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد موت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها دار البلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها زوال لا تدوم أحوالها، ولن يسلم من شرها نزالها، بينما أهلها منها فى رخاء وسرور، إذا هم منها فى بلاء وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والرخاء منها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها .

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من زهرة الدنيا على سبيل قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارًا، وأشد منكم بطشًا، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، فأصبحت أموالهم هامدة بعد نقلتهم، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الممهدة الصخور والأحجار فى القبور، التى قد بنى على الخراب فناؤها، وشيد بالتراث بناؤها [٢] .

وهكذا كلما أقبلت الدنيا على أمير المؤمنين أعرض عنها، وكلما ارتمت تلثم

---

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٠٢ بتصرف .

قدمه ركلها، فهذا بيت المال يمتلئ بالأموال، ويأتى خازنه إلى سيدنا علىٍّ ويقول : يا أمير المؤمنين ، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء ـ ذهب وفضة ـ فيقول ﷺ : الله أكبر .

ثم قام متوكئًا عليه حتى أتى بيت المال، وأمر فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء ، غرى غيرى، حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم قام يكنس بيت المال ورشه بالماء وصلى فيه ركعتين [١] .

بهذا الزهد تحلى أمير المؤمنين أبو الحسن والحسين ﷺ حتى غشيت جلالته الأبصار، وخشعت أمام قدره العيون، وخفضت له جناح الضعّة، وإذا نظرت إلى حاله المقل، امتلأت الصدور هيبة منه، وبعُدت همة الإمام ونزعت إلى سنى المراتب حتى أصبح يؤم معالى الأمور مع أوائل الزهاد خلف رسول الله ﷺ .

وحاشاه ﷺ أن يبغض الدنيا لذاتها، لا ... إنه أبغض إفساد الصالح فيها، فقد خلقها الله صالحة، ولولا ذلك ما نهانا عن الإفساد فيها ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، فقد أيقن أمير المؤمنين ذلك، فإعراضه عنها إصلاح فيها؛ لأن حقيقة الإقبال على الدنيا ـ كما خلقها الله تعالى ـ يثبته الإعراض عنها، وتلك صفتها، الإعراض عنها، لذلك لما ذم رجلٌ الدنيا عنده ﷺ قال له :

الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى وزاد لمن تزود منها، ومهبط وحى الله، ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه،

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٨ .

ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد آذنت بغيلها، ونادت بفراقها، وشابت بشرورها السرور، وببلائها الرغبة فيها، والحرص عليها ترغيبًا وترهيبًا.

فيا أيها الذام للدنيا، المعلل نفسه بالأمالى، حتى خدعتك الدنيا، أو متى اشتدمت إليك، أبمصارع آبائك فى البلاد، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى، كم مرضت بيديك، وعللت بكفيك، ممن تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطباء، لا يغنى عنه دواؤك ولا ينفعه بكاؤك [1] .

ومن هذا الكلام نفهم أن موقف سيدنا علىٍّ لم يكن موقف الطاعن فى نِعَم الدنيا، المعرض عن الحلال فيها بالتحريم، لا ... إنه موقف النذير من استعمال أدواتها فيما يغضب الله تعالى، إنه موقف النذير من استغلال نعمها فيما يجلب سخط الله فى الآخرة، إنه موقف النذير من اتباع أهوائها فيما يعطل الهداية فيها .

بهذه الأطياف العابرة، المعبرة عن الألطاف النادرة، تكاملت شخصية سيدنا على بن أبى طالب، الذى نطق بالحال والمقال معبرًا عن ترجمان الأشواق، جاذبًا العقول والألباب إلى معامع الأذواق، وهو الأمير والسلطان والخليفة الزاهد العابد .

أمير الزاهدين فى عداد الشهداء :

فاضت قلوب المسلمين بالأسى، يوم سقط الإمام الزاهد شهيدًا، وبات ﷺ بين الفرحة الغامرة بمنازل النبيين والصديقين وبين دهشة الموقف، وارتسمت

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٣٨٥ .

على وجوه الناس ملامح الرثاء، رثاء على فدائى رسول الله ﷺ، رثاء على من أدهش الدنيا بزهده، رثاء على من جاع ليشبع الناس، رثاء على من أمَّ المساكين ودافع عن الفقراء، رثاء أدمع السماء، وأنبت حدائق الأحزان فى الأرض .

إنها المؤامرة لقتل علىٍّ قد أبدت حقدها لتعبر عن بغضاء أهلها، فقد اجتمع زعماء الشر الثلاثة، عبد الرحمن بن مُلجم المرادى، والبُرك بن عبد الله التميمى، وعمرو ابن بكر التميمى، فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم، فراحوا يقسمون الوليمة بينهم، إنها وليمة الغدر والخيانة .

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علىَّ بن أبى طالب، وكان من أهل مصر .

وقال البُرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

فتعاقدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسموها، وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب .

فأما (ابن ملجم المرادى) فكان عداده فى كندة، فخرج فلقى أصحابه بالكوفة ، وكاتمهم أمره كراهة، أن يظهروا شيئًا من أمره، فلقى امرأة من تيم الرباب يقال لها : قَطام ، ابنة الشجنة، وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهر على يد سيدنا على، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها التبست بعقله، ثم خطبها، فاشترطت عليه لقبول زواجها ثلاثة آلاف درهم، وعبد، وقينة، وقَتْل على بن

أبى طالب، فذلك مهرها، فرضى بذلك وقال : أما قتل عليٌّ فو الله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتله، فلك ما سألت، فأعانته برجل من قومها يُقال له : (وَرْدان) ورجل يدعى(شبيب بن نَجَرة) فأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل الشُدة التى يخرج منها عليٌّ الباب ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف ، فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه (أى: جبهته): أما وردان فهرب، حتى قتله رجل من بنى أبيه بسيفه، وأما شبيب فلحقه رجل من حضرموت يُدعى عويمرًا، فجثم عليه فأخذ منه السيف، فلما رأى الناس قد أقبلت عليه خشى على نفسه فترك شبيبًا ،ونجا شبيب فى غمار الناس .

وأما ابن ملجم فشدوا عليه، فأخذوه، إلا أن رجلًا من همدان يُكنى أبا (أرماء) أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه، وتأخر علىّ ، وتقدم جَعْدة بن هبيرة بن أبى وهب فصلى بالناس، ثم قال على : عَلَىَّ بالرجل . فأدخل عليه، ثم قال : أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟! .

قال : بلى .

قال : فما حملك على هذا ؟

قال : شحَذته ـ أى سيفى ـ أربعين صباحًا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

فقال على : لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شر خلقه، ثم قال:النفس بالنفس،إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى، وإن بقيت رأيت فيه رأيى .

ودخل الناس على الحسن فزعين لما حدث، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف اليدين، إذ نادته أم كلثوم بنت على وهى تبكى : أى عدو الله، لا بأس على أبى والله مخزيك.

قال : فعلى من تبكين، والله لقد اشتريت هذا السيف بألف وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم أحد .

فدعا سيدنا على حسنا وحسينا ، وقال : أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا و إن بغتكما، ولا تبكيا على شىء زُوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف، واصنعا للأخرق، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرًا، واعملا بما فى كتاب الله، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم [١] .

إن عليًّا يوصى بالزهد عن الدنيا والدم يقطر منه، والموت يناديه، وكأنه لا يأبه بألم ولا بموت، وكأنه استشعر ألم الدنيا فى نفسه فأنساه ألم الجراح، وظل يوصى حتى زهقت روحه إلى بارئها وهو يقول : (لا إله إلا الله)، فظل يرددها إلى أن قُبض ﷺ.

قال العلماء : ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان، وقيل : ليلة إحدى وعشرين منه، سنة أربعين، فبقى الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد، عن عمر يناهز الثلاث والستين، وقيل : خمسًا وستين، وقيل : سبعًا أو ثمان وستين [٢] .

وقد انتقم الله له بقتل ابن ملجم ، مع أنه لا يُرضينا فى دمه أقصى العدِّ

(١) أ. محمد رضا، على بن أبى طالب ، ص ١٨٨ ـ ص ٢٩٢ بتصرف واختصار .
(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٠٤ .

ومنتهى الحدِّ من أمثال ابن ملجم ، وقد قتل ابن ملجم أشنع قتله بعد أن قطعوا أعضاءه عضوًا عضوًا، وكُحل عينيه بمسمار محمى حتى سالتا، ثم جعلوه فى قوصرة (وعاء من قصب) وأحرقوه بالنار.

وقد ذكر هذه الرواية فى قتل ابن ملجم ابن سعد فى الطبقات، كما ذكرت فى أسد الغابة، وتاريخ أبى الفداء [1] وغيرها .

رحم الله جدنا عليًّا شيخ الزهاد ، ونبراس أهل الورع، وقدوة أهل الصفاء، ومشكاة أهل الزهد والنقاء، رضى الله عنه وأرضاه .

(١) أ . محمد رضا، على بن أبى طالب، ص ٢٩٦ بتصرف واختصار .

obeikandl.com